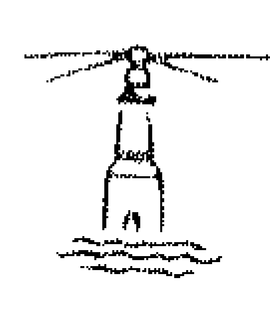
اقرأ

عدد ممتاز

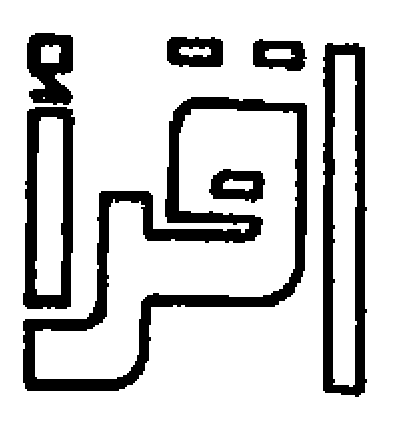
دكتور حسين مؤنس

تقاسيم على أنغام من بلدنا

صور صادقة عن مصر وأهلها في مقالات



دار المعارف



[٥٦٨]

تقاسيم على أنغام من بلدنا

صور صادقة عن مصر وأهلها في مقالات

دكتور حسين مؤنس

تقاسيم على أنغام من بلدنا

صور صادقة عن مصر وأهلها في مقالات



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هـذه السلسلة ونشرهـا ، لم يفكـروا إلا فى شىء واحد ، هـو نشر الثقافـة من حيث هى ثقـافة ، لا يـريـدون إلا أن يقـرأ أبنـاء الشعـوب العـربيـة . وأن ينتفعـوا ، وأن تـدعـوهم هـذه القـراءة إلى الاسـتـزادة من الثقـافـة ، والـطمـوح إلى حيـاة عقليـة أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

تقديم

باسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، الرحمة المهداة.

وبعد...

فهذه حلقات مختارة من سلسلة المقالات التى كتبتها فى مجلة أكتوبر من نحو عشر سنوات، تحت عنوان جامع، هو «تقاسيم على أنغام من بلدنا»، وهو عنوان هذا الكتاب، ذلك أن حياة المصرى بسيطة ومعقدة فى نفس الوقت، لأن المصرىّ بطبعه سهل بسيط ومستقيم وشريف، وأنت لا تجد فى التعامل معه مشاكل، وخاصة النساء المصريات فهن جواهر، إنهن مطيعات شغالات وذكيات وأمهات مثاليات.

وهذه الطيبة أطمعت الرجال فيهن، فالرجل المصرى يعتقد أن أية امرأة فى الدنيا جارية له.

وصدقنى أن المرأة المصرية لا مانع لديها من أن تكون جارية، ولكنها تحب أن يكون زوجها رجلاً شهمًا كريمًا، أما أن يكون صعلوكًا ويريد جارية فمن المستحيل، وهذا سبب من أكبر أسباب متاعب الزواج فى بلدنا اليوم، فإن الرجل يرى أن امرأته تعمل وتأخذ مرتبًا، فهو يريد أن تأخذ مرتبها وتعطيه إياه، وحتى هذا لا تمانع فيه المرأة المصرية، إذا كان

زوجها شهمًا شريفًا، ويريد أن يأخذ المال لينفقه على البيت، أما أن يكون صعلوكًا فهو لا يستحق.

ومشاكل حياة المصريين تأتى من الإهمال، ومن الكلام بغير مسئولية. فأنت تطلب منه شيئًا، فيقول لك: عينيه!، وهو طبعًا لن يعطيك عينيه، ولكنها كلمة يقولها، وتتوالى حكاية «عينيه».. حتى يصبح المصرى مدينًا للدنيا كلها، وهنا تجد حياته تعقدت وتراه يشكو سوء الحال لكل الناس، وهو نفسه سبب سوء الحال.

فالمصرى بسيط وطيب، وهو فى نفس الوقت غير طيب ومعقد،مثل هذه المشاكل أعالجها فى هذا الكتاب لأننى أريد أن أسهل حياة المصرى، وأعلمه كيف يجعل حياته بسيطة وسهلة فعلاً. فليس من الضرورى أن يقول طول النهار: عينيه! عينيه يكفى أن يقول: حاضر، وكلمة حاضر تفتح البيوت.

ثم إننى فى هذه التقاسيم، أدعو المصرى للتفكير. ولا أقول له: إننى دائما على حق، فقد يكون الحق معه، ولكن المناقشة، والأخذ، والرد يفتح الذهن، ويعطى الإنسان مفتاحًا من مفاتيح الحياة، وأنا شخصيًّا أتعلم من كل الناس، حتى تلاميذى فى الجامعة أتعلم منهم، وهذا كله يخلق تقاسيم أنغام الحياة، فاقرأ وفكر لكى تسهل حياتك. أجل، اقرأ واحترم امرأتك، بل قبل يديها ورجليها تعطيك عينيها، وتقبل يديك ورجليك.

وهذا كلام لا تجده فى الكتاب، لأننى أريد أن أضيف جديدًا لما فى الكتاب، فهى صور من حياة المصريين وتفاصيل من هذه الحياة، وهى التقاسيم على نغمات الحياة، وكل مقال فيه عشرات التقاسيم، ولهذا لن

أضايق القارئ بعرض موضوعات المقالات، فها هى ذى بين يديه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريد، ولكنه يفكر، وهذا هو الذى أطلبه من المصريين: أن يفكروا..

وسلام من الله عليك وبركته تحل عليك..

أخوك

د . حسين مؤنس

القاهرة فى فبراير ١٩٩١

مسافر بدون متاع

قرأت فى الأيام الأخيرة كتابًا ممتعًا للأديب الناقد جلال العشرى عنوانه «صرخات فى وجه العصر»، عرض فيه لنفر من أعلام الفكر الغربى فى العصر الحديث، ممن تمردوا على اتجاهات الناس فى الفكر والحياة، وأرادوا تعديلها، أو اقترحوا مسارات جديدة للفكر واتجاهات مبتكرة للحياة، من أمثال فريدريخ هيجل وسورن كيركجورد وجان بول سارتر وجون أوزبون وإيمست همنجواى وزوجته (رجاء) جارودى، وقدم لكل منهم عملاً يتمثل فيه تمرده على المسار التقليدى والدرب المطروق.

وقد وجدت فى مطالعة هذا الكتاب متعة حقة، وأضيف إلى جماعة المفكرين المؤلفين الذين عرض لهم العشرى، رجلاً يهمنا نحن المؤرخين بصورة خاصة هو جان أنوىjean Anouilh.

وهو مؤلف مسرحى خصب الفكر غزير الإنتاج، ولد فى بوردو سنة ١٩١٠، وبدأ حياته الفنية تلميذًا للممثل المخرج الفرنسى المعروف لوى جوفيه، ومنه تعلم إتقان كتابة المسرحيات وإحكام أركانها، وهو أمر ينقص المؤلفين المسرحيين الجدد عندنا بشكل واضح جدًا، وحبذا لو قرأوا لجان أنوى.

وسر اهتمام المؤرخين بهذا الأديب، أن له مسرحية عظيمة المغزى بعيدة المرمى عنوانها «مسافر بدون متاع Voyageur sansbsggage» والمتاع عنده هو حصيلة الإنسان وما يخرج بـه إلى الحياة من خلفية اجتماعية، وتربية عائلية، وموروث مادى ومعنوى، وما يُعِدُّ به نفسه من علم وثقافة ومهارة فنية يدوية أو عقلية اكتسبها لتكون بعض سلاحه فى معركة الحياة.

وموضوع المتاع الذى يتزود به الإنسان لمعركة الحياة، يحتل المكان الأول من اهتمامات الناس فى الغرب، لأنهم بطبعهم جادون فى كل أمورهم، وهم يعرفون دون أدنى شك أن الحياة معركة يخوضها كل إنسان بما تيسر له من أدوات من علم، أو خبرة أو مهارة أو موروث عائلى واجتماعي، وهم يعرفون الحظ والقدر والتساهيل، ولكنها لا تدخل ضمن المتاع الذى يعول عليه، فقد يواتيك الحظ وقد لا يواتيك، وقد يرفق بك القدر وقد لايرفق، وقد تأتيك التساهيل وقد لا تراها فى حياتك، أما الذى تعول عليه فى رحلة الحياة فهو ما تحمله فى حقيبتك من مال ومتاع. والمتاع هنا كناية عن أدوات معركة الحياة وأسلحتها التى ذكرناها.

وقد أكثرت أجيالنا السالفة من تأليف كتب عنوانها «زاد المسافر» و «زاد المعاد»، ولكنها كلها تدور حول ما يتزود به الإنسان للحياة الأخرى، وهو مطلب محمود واتجاه من التقى لا يستغنى عنه اللبيب العاقل، ولكن أحدًا منهم لم يؤلف شيئًا عن الزاد اللازم لهذه الحياة الدنيا، التى وجدنا أنفسنا فيها، ولا مفر لنا من خوض معركتها، والانتصار فيها، لأن تراثنا الفكرى كله ينظر إلى الماضى. وهو لهذا تراث يسلى ولكنه لا ينفع، ومن كلمات همنجواى التى لا تنسى قوله فى إحدى رواياته:

«إن النجاح فى الحياة فرض على كل إنسان يحترم نفسه، ولابد أن تحتشد لمعركة الحياة بكل سلاح يتيسر لك، وكل عزيمة فى كيانك. هنا لا يمكن أبدًا أن تفشل، لأن الحياة خلقت ليفوز بها من يخوضها بالعدة الصالحة والعزيمة الثابتة، صدقنى : إن الفشل عيب وخطيئة والتعلل بالحظ اعتراف بالعجز».

وهذه الخواطر أذكرتنى بمشهد كان أثناء درس كنت ألقيه على طلبة الدراسات العليا فى إحدى جامعاتنا من سنتين. وكان الطلاب ممن حصلوا على الليسانس بدرجة جيد فما فوق، أى أنك يمكن أن تقول إنهم من الممتازين، وأحببت فى مدخل الدروس أن أعرف مستوى الطلاب لأعرف أين انتهوا لأعرف من أين أبدأ، فكان أول ما راعنى أن أولئك الطلاب الممتازين جميعًا لا يعرف واحد منهم من اللغة الأجنبية أيا كانت ما يقيم به قراءة جملة من سطر فى أبسط كتاب وفهمها، بل روعنى أن أتبين أن الطلاب الممتازين نسوا خلال سنوات الدراسة الجامعية ما كانوا يعرفونه من الإنجليزية فى الثانوية العامة، أما مستواهم فى لغتهم العربية فمخيف حقا فلا وجود لشىء اسمه قواعد اللغة ونحوها فيما يقرءون ويكتبون.

ثم أدخل بهم فى التاريخ الإسلامى وهو ميدان تخصصهم، وفيه يريدون أن يحصلوا على الماجستير ثم الدكتوراه. فاكتشفت أنهم أبرياء منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب، فواحد منهم لا يعرف عن عبد الملك بن مروان إلا أنه كان خليفة، أما فى أية دولة فعلمه عند ربهم. وواحد منهم لم يسمع من سنوات طويلة بسعد بن أبى وقاص، وقد سمعوا بشىء اسمه البصرة، أما أين تكون هذه البصرة فمشكلة، وأسأل واحدًا منهم عن الفسطاط فيبدو لى فى عينيه أنه يعرفها، وهو يعرف أنها فى مصر ولكنه لا يدرى أين ؟

ثم أدخل معهم فى شئون الحياة فيملكنى العجب، فلا علم لهم بشىء واضح فى الاقتصاد أو القانون. وأسأل ما هو القانون الإسلامى؟ ويكون الجواب الأزهر، وواحدة من الطالبات قالت: إن ثورة يوليو كانت سنة ١٩٥٦، وإن حرب اليمن كانت أيام الملك فاروق، والسوق الأوروبية المشتركة شركة إنجليزية أو أمريكية لها فروع فى مصر، وأعرض عليهم خريطة صماء خالية من الكتابة مما يستعمل فى عمل الخرائط والأطالس فلا يعرف واحد منهم كيف يرتب عليها بلاد المغرب العربى، وأطلب إلى واحد منهم أن يضع يده على اليابان فى خريطة شرق آسيا فيضع إصبعه على الفليبين.

وأسألهم ماذا تعلموا خلال سنوات الدراسة الجامعية الأربع؟ وفيم أنفقوها؟، ويخرج لى الجواب من الأحاديث التى أدرتها معهم، فهؤلاء الشبان الذين يدخلون الآن معركة الحياة قد امتلأت رءوسهم بعبارات ومفهومات قبسوها من روائع عادل إمام، وبدائع محمد عوض، وجمعوها من حصيلة أمثال عامية بلدية مما كنت أسمعه وأنا غلام، وكنت أحسب أنها اندثرت وانقضت بتقدم المدنية وانتشار العلم، فإذا بها قد انتعشت وعادت إلى الحياة بفضل المسلسلات، وهم عفاريت فى النكت والردود البارعة الفاجعة، وما تعلموه فى البيت ضئيل جدًّا، فلا الأب فتح عيونهم على حقيقة، ولا الأم علمتهم شيئًا نافعًا..

وفى نهاية هذا الدرس الحزين أشعر أن أولئك الشبان الطيبين، لم ينتهوا عند حد من العلم أبدأ عنده، وإذا كان لابد أن يدرسوا معى فلابد أن أبدأ البداية، ولم يكن لدى مانع من أن أبدأ معهم من البداية، أى عندما انتهوا إليه فى الثانوية العامة. فسنوات الدراسة الجامعية الأربع ضاعت

عليهم فى غير طائل، إنما هى مذكرات هزيلة جافة كأنها مُصاصة قصب لاكوها فى أفواههم ثم نفثوها، ولو وجدوا زادًا نافعًا لأخذوه. فهم فى جملتهم شباب طيب صالح. ولكننا لم نعرف كيف نعينه على الإفادة من سنوات عمره، فالذنب فى البداية والنهاية ذنبنا، وهؤلاء الأعزاء يخرجون إلى الدنيا بغير أداة أو متاع، لأننا لم نضع فى حقائب رحلتهم شيئًا نافعًا. وذنبهم فى رقابنا لأنهم مثل كل شباب الدنيا يدخلون الجامعات ليتكونوا ويتعلموا فلم يجدوا من يكونهم ولم يظفروا بعلم يفيدهم.

وقد حسبتها بالورقة والقلم مرة: جمعت بعض مذكرات الطلاب أثناء قيامى بالمراقبة فى بعض دورات الامتحانات، وأخذت المواد مادة مادة فإذا كانت المادة تشتمل مثلاً على عشرة موضوعات كان الذى عندى فى المذكرات اثنين ونصفا، والباقى لا وجود له. فإذا فرضنا أن درجات هذه المادة عشرون فليس لدى الطالب منها أولا عن آخر إلا خمس. وهو إذا استذكر هذه الخمس استحق العشرين درجة. فما بالك وهو لم يحصل إلا على اثنتى عشرة درجة أى فوق النصف بدرجتين؟ ومعنى ذلك أن هذا الطالب الجالس أمامى لم يأخذ فى الحقيقة إلا درجة من عشرين، وهذا هو مستواه الحق، وتلك بدايته ونهايته، وهذا هو كل ما فى حقيبته وهو فى أول رحلة الحياة: مسافر بدون متاع!! وخارج إلى الدنيا بدون زاد. فإلى أين والله يستطيع أن يصل؟.

هذا هو السؤال الذى يحيرنى ويعذبنى.

ومن نعم الله على مثلى ألا يكون مدير جامعة، لأنه فى تلك الحالة لابد أن يقول: ليس فى الإمكان أحسن مما كان. والأحوال يامولاى على أحسن ما يرجى فى أسعد بلاد الله. لأن الناس عندنا إذا تقلدوا وظيفة

أصبحوا ممثلين يقومون بأدوار، فإذا أخذ ممثل دور هاملت فلابد أن يقول كلام هاملت كما كتبه المؤلف، وإذا أخذ دور عطيل فلابد له من أن يقول كلام عطيل، حتى وجهه لابد أن يطليه باللون الأسود، وإلا لم يكن عطيلاً، ويقال: إنه فشل فى أداء الدور، ورحم الله أستاذنا العلامة الدكتور أحمد زكى، عينوه مديرًا لجامعة القاهرة. وبعد نحو شهر أبلغوه أن سيادة الوزير سيزور الجامعة، فأصدر الرجل أمره إلى رجال الإدارة بأن يهيئوا إدارة الجامعة لزيارة الوزير، وجلس هو فى مكتبه ينتظر، حتى إذا قالوا له: إن الوزير وصل خرج لاستقباله.. ووصل الوزير فعجب كيف لم يجد مدير الجامعة فى مقدمة المستقبلين على الباب أسفل سلم إدارة الجامعة، فأنكر ذلك إنكارًا شديدًا، وكان الرجل على أهبة الخروج لاستقبال الوزير إذا اقترب، ولكن الوزير كان ينتظر أن ينتظر مدير الجامعة على الباب ساعة أو ساعتين. وفى ذلك اليوم أهمل الوزير مدير الجامعة، وطاف معه فى الزيارة عميد إحدى الكليات، وكان ذكيًّا ملحلحًا، وطوال الزيارة جعل يستنكر تصرف مدير الجامعة ويقول: إنه رجل لا يصلح لشىء، وكان ما أراد.. بعد قليل فصل مدير الجامعة لأنه رجل لا يصلح، وأقيم سيادة العميد مديرًا، ودخل فى دور عطيل وأجاد، حتى وجهه صبغه بالسواد.

* * *

ويدهش الناس عندنا لسقوط العمارات الجديدة ويقولون: المقاول أو المالك هو المسئول، وأنا أقول بل المهندس، لأن أحدًا فى الدنيا لا يبنى عمارة ذات أدوار كثيرة أو يضيف أدوارًا على عمارة قائمة دون مهندس، فكل هذه العمائر التى تنهار رسم خطتها أو خطة زيادتها مهندسون، فهم

أولا وآخرا المسئولون، وأنا لا أقول هنا إن أولئك المهندسين يغشون بل أقول: إن هذا منتهى علمهم، فلست أظن أن مهندسا يطاوعه ضميره أن يأتمر بأمر مقاول ويرسم رسمًا هو يعرف أنه لا يحتمل، ولكن المعقول أن هذا هو كل علمه، وإذا كان خريج الآداب يحصل فى الحقيقة عند النجاح على درجة ونصف من عشرين فلماذا نستبعد أن يكون هذا هو مستوى المهندس أيضا؟ أليس هذا أخا ذاك. فالمسألة فى البنايات ليست دائمًا مسألة ضمير وإنما هى مسألة علم، وإذا كنا نطلق أولئك الشبان فى رحلة الحياة وفى أيديهم حقائب فارغة، فما ذنبهم إذا لم يصلوا إلى الغايات التى نطلب ويطلبون؟.

ومثل هذا يقال عن خريجى الطب، وإذا كنا فى حالات المبانى نرى المأساة بأعيننا لأن العمارة انهدمت، فإن أحدًا لا يرى المأساة فى حالة المرضى إلا فى النادر، والمريض الذى يزور المستشفى ويخرج بعلاج ثم يموت فى بيته لا يفكر أحد فى البحث عما جرى له وإنما هو يغسل ويكفن ويدفن. وهذه هى نهايته، وإذا هو مات فى المستشفى أخرجوه من الباب الخلفى وتسلمه الحانوتى وأسرته أو الحانوتى وحده..

وهنا أيضا لا أقول إنها مسألة ضمير بل مسألة علم، فهذا هو منتهى علمه، وذلك هو ما أعطوه فمن أين له غيره؟ إن الكثيرين من أولئك الأطباء يتعلمون مع الزمن، وقد يصبحون أطباء مهرة فى النهاية، ولكن أحدًا لا يحصى من هلكوا فى الطريق.

وهنا لا تعجب من أن بلادنا من أكثر بلاد الدنيا استهلاكاً للأدوية، فى حين أن سويسرا وإنجلترا أقلها، لأن الطبيب عندنا إذا كشف على المريض أعطاه دواء للكبد وآخر للطحال وثالثًا للمعدة، فإذا لم ينفع هذا

نفع ذاك، وفى الغالب يذهب المريض وعلته الكبد فيخرج ومعه الطحال والأمعاء، وربما الكلى هدية من المحل، والمريض يخرج من طبيب إلى طبيب، ونحن نشك فى الذمة وأنا أبرئ الذمة ولكنى أقول إنه العلم.. ومادام هذا هو ما وضعناه له فى الحقيبة فكيف نطالبه بأكثر؟، ويقول بعض أطبائنا إن المريض المصرى لا يرضى إلا إذا كتبت له وصفة من صفحتين، وإنهم يكثرون من الأدوية، ليسدوا حاجة نفسية عند المريض. وقد يكون هذا حقا، ولكن من الذى أوجد عند المرضى هذه الحالة النفسية؟ ولو تعود المرضى على أن يجدوا الشفاء من دواء واحد لما طلبوا غيره، وعندما كنت فى إنجلترا من شهور ذهبت إلى طبيب عيون وفحص الرجل عينى ثم قال: لابأس بالحالة، ولا تطلب من عينيك أكثر مما تعطيانك الآن. وكل ما أنصحك به هو ألا تغسل عينيك بالصابون إلا مرة واحدة فى الصباح، فإذا احتجت إلى غسيل بقية اليوم فبالماء البارد ولا زيادة، تجعله يسيل على عينيك من الصنبور دون أن تمسهما بيدك، وإذا شككت فى الماء فليكن الغسيل بمياه معدنية ولا قراءة ولا فرجة بعد الثامنة مساء، وحسب هاتين العينين المظلومتين أن تكفياك مطالب العمل بالنهار.

* * *

وعندما أرى مشاكلنا وعجزنا عن حلها فإننى لا أسارع إلى سوء الظن، وأتهم الذمم والضمائر، فالحق أننا لسنا شعبًا فاسدًا، وما يسمى بموجة الفساد عندنا اليوم وهم وتهويل، والناس عندنا فى الغالبية العامة ناس فضلاء أو أقرب إلى الخير، وعدد اللصوص يزيد اليوم عما كان عليه بالأمس. ولكن العلم أقل فى كل ميدان، والشباب منذ سنوات يخرجون

لرحلة الحياة بحقائب فارغة، وهم فى هذه الحالة لابد أن يحتالوا للعيش، ولكنه احتيال المضطر لا احتيال الفاسد بطبعه، وقد قيل لى من سنوات: إنهم أحالوا مشروعات بناء الجراجات من أدوار إلى لجنة من المهندسين ففحصوا الموضوع ثم قالوا: إن تربة القاهرة لم تعد تصلح، وقالوا إن جمهورنا لن يحسن استعمالها وأشاروا فى النهاية بصرف النظر عن الموضوع.

وعندما قال لى المختص بالإنشاءات فى المحافظة هذا الكلام قلت: هل سبق لنا فى بلدنا أن أنشأنا جراجات ذات أدوار؟ قال: لا! قلت: إذن فمن أين لهؤلاء المهندسين أن يعرفوا عمل حساب مواقف السيارات ذات الأدوار؟ وهل يتعلم الإنسان من الهواء؟ إننى أعرف أن بناء المواقف ذات الأدوار من أصعب المشروعات، لأن المسألة هنا ليست مسألة بناء وحساب أسمنت مسلح فحسب، بل هى منشآت فى غاية التعقيد ومشاكلها الفنية كثيرة جدا، ولابد كذلك من حساب مسألة الاستعمال على المدى الطويل. فهذه سيارات صاعدة هابطة طول النهار والليل. ومنحدرات ذات ميل محسوب وأبواب ومخارج للسيارات التى تظل أكثر من ساعتين وأخرى للتى تمكث ساعة أو أقل.

ويقول لى محدثى:

– إذن فكيف أنشئوها فى الكويت والسعودية؟.

وأقول: لأن الناس يعرفون هناك من أين يبدأون أعمالهم. وما داموا هم لا يستطيعون تصميم المواقف ذات الأدوار، فهم يلجأون إلى شركات غربية تتولى الأمر من بدايته لنهايته، بل إن هذه الشركات تأتى بمن يتولون «تشغيل» الجراج للمدة التى يتطلبها تدريب أبناء البلد، وشيئا

فشيئًا يحلون محل الأجانب، أما نحن فنتكلم كلامًا غير منطقى ونقول: مادامت عندنا كليات هندسة فنحن نستطيع أن نقوم بأى عمل هندسى. والنتيجة ما ترى، حتى المبانى التى لا تتعرض للسقوط فإنك لن تجد فيها أى ابتكار أو تجديد، وانظر إلى المبانى الحديثة فى شارع أوروبى وقارنها بما ترى فى شارع مصرى، وسترى بنفسك ما أعنى: هناك تنويع وابتكار وتصرف، وهنا مبان متشابهة لاتبهرك هندسة واحدة منها إلا ما وضع تصميمه وأشرف على إنشائه مهندسون من هناك أو مهندسون من القدامى وأصحاب الخبرة والعلم.

* * *

آتريد برهانا ترى صدقه بعينيك؟

إنهم يقولون لك إن مجارى القاهرة وشبكاتها الكهربائية وضعت من ثلاثين أو أربعين سنة وصممت لمليونى نسمة، ولهذا فهى لاتحتمل اليوم..

ونقول: سلمنا لكم بهذا، فتعالوا معنا إلى مجارى وأنابيب مياه وأنابيب كهرباء مدينة المهندسين، فهذه المدينة وضعت شبكاتها فى أواخر الخمسينات أو فى الستينات والسبعينات فما بالها تشكو من عيوب هى أسوأ بكثير من شبكات القاهرة؟ وهناك شوارع فى المهندسين. أو مدينة نصر عملت شبكاتها فى السبعينات، بل فى أوائل الثمانينات، ومع ذلك فإنها ليست أحسن بكثير من شبكات القاهرة المسكينة، وهل هنالك فى المهندسين أو مدينة نصر شارع لم تطفح مياهه؟ ألم يفكر المهندسون الذين رسموا شبكاتها فى أنهم يعملون لمدينة جديدة ستصل إلى ذروة عمارتها وعملها فى أوائل القرن الحادى والعشرين؟ إذن فلماذا تنفجر المواسير

من منتصف الستينات، أى قبل أن يمضى على عمل الشبكات خمس سنوات فحسب؟

تريدون الحقيقة الأليمة، إن شبكات مدينة المهندسين أسوأ بكثير من شبكات القاهرة. وشبكات مدينة نصر أسوأ من شبكات مدينة المهندسين، وعندنا فى مصر الجديدة أحياء بنيت فى العشرينات وشبكاتها أحسن بكثير من شبكات الأحياء التى أنشئت فى الستينات والسبعينات.

هل نقول: قلة ضمير؟

لا. قلة علم!! فإن العلم يتطور ويتقدم، ولكن قنوات العلم عندنا ضيقة وبالية مثل شبكات المياه والمجارى والكهرباء، ولكى نصلح الشبكات لابد أن نصلح قنوات العلم، وكما أنى حزين لحال طلاب الدراسات العليا الذين درست لهم كل شىء من جديد، فإننى كذلك حزين بسبب المبانى التى تتهاوى، وحزين أكثر على المهندسين المسئولين عنها، فإن طلابى لم يستطيعوا قراءة الإنجليزية والتعبير بها لأنهم لم يتعلموا ذلك. وعندما ألزمتهم بالاشتراك فى برامج تعليم اللغة الإنجليزية فى بعض المعاهد تعلموا وقرأوا وبدأوا يشعرون بالمتعة فى الدراسة، وواحد منهم اليوم يكسب مالاً لا بأس به من معرفته بالإنجليزية إلى جانب سيره سيرًا طيبًا فى دراسته بعد الجامعية، مثل هذا أقول فى المهندسين والأطباء، فإن قلة العلم ليست عيبًا مادام الإنسان لم يقصر فى طلبه، ومن الممكن لهؤلاء جميعا أن يعوضوا ما فات بالدرس والاطلاع والتجربة.

ويبقى بعد ذلك أن نقول: إن تعليمنا الجامعى كله فى حاجة إلى إصلاح شامل، وإذا كنا لا نستطيع تعديل كل نظم التعليم العام، فإننا على الأقل نستطيع إعادة النظر فى نظامنا الجامعى كله. إن الموضوع متعلق بمستقبل

مصر كلها، ومصر شابة وأمامها العمر الطويل، وإذا كنا قد تنبهنا إلى تلك الحقيقة الآن فلنحمد الله على ذلك ولنبدأ العمل من جديد، وفرنسا نفسها أعادت وضع نظم جامعاتها كلها بعد ثورة الطلاب فى جامعة باريس سنة ١٩٦٨، وتقرير وزير التعليم فى فرنسا إذ ذاك وهو إدجار فور ما زال بين أيدينا. وقد استطاعت فرنسا بجرأة وبسالة وإيمان وواقعية أن تصلح نظامها الجامعى كله ابتداء من سنة ١٩٧٠، وأصلحت بذلك مسارها الحضارى كله.

أنا أعرف أن ما أطالب به صعب، ولكننا لا ينبغى أن ننسى أننا فى عالم اليوم لانجد شيئًا سهلًا أبدًا، فكل إصلاح أو إعادة تنظيم يمس بمصالح ملايين ولكن لا بأس، فإنا بالشجاعة والإخلاص سنستطيع تخريج جامعيين أحسن. يستطيعون مسايرة العصر وإيجاد العلاجات الناجعة لمشاكلنا.

إننا ندهش لأننا لا نستطيع حل أى مشكلة من مشاكلنا حلا صحيحا ناجعًا: الإسكان والمواصلات والمصانع والتموين وكل شيء راكد أو متدهور عدا الجيش، فقد كان رجال الجيش باسلين حقا، لأنهم استطاعوا بعد كارثة ١٩٦٧ أن يواجهوا المشاكل بشجاعة وواقعية وحب لمصر، لقد أخذوا دروسًا من كل عيوب جيش عبد الحكيم عامر، ولم يترددوا فى اتخاذ الإجراءات الناجعة، بل هم بدأوا من جديد فى بعض الميادين العسكرية، والنتيجة هى ما نرى والحمد لله ألف حمد، وواضح أن رجال الجيش قاموا بهذا العمل العظيم لأنهم كانوا أعلم بما يريدون وكيف يصلون إليه، وعلى العلم اعتمدوا وسافروا ودرسوا وأرسلوا بعثات وأنشئوا معامل ومراكز

تدريب. وبالعلم تغلبوا على العقبات الإدارية الجامدة، فلماذا لا نتعلم منهم؟

* * *

العلم هو الزاد الوحيد الذى ينفعنا فى رحلتنا الراهنة من الفقر إلى اليسر، من الفوضى إلى النظام.. من خسائر المصانع والمشروعات إلى الكسب. من الديون إلى الثبات المالى، من ديموقراطية الكلام إلى ديمقراطية العمل، من الحلم بالرخاء إلى العيش الفعلى فى الرخاء. والعلم الذى لدينا الآن قليل جدًا.

وحقيبة سفرنا إلى الغد ليس فيها إلا ذكريات المجد الماضى: ٧٠٠٠ سنة حضارة وألف سنة أزهر، وثمانون سنة جامعة القاهرة، وخمسون سنة أحمد شوقى.. إلى آخره.. إلى آخره.. كلها شيكات على بنك التاريخ..

والذى نحتاج إليه الآن شيكات على بنك الحاضر وبنك الغد، والرصيد الوحيد الذى لا ينفد أبدًا هو رصيد العلم الصحيح الذى ينفع، لا علم الشهادات والماجيسترات والدكتوراه، بهذا الرصيد تستطيع مصر أن تسافر إلى المستقبل آمنة وفى حقيبتها دفتر شيكات على رصيد متين كالطود.

وهنا أيضا يسافر شبابنا إلى الغد بكل المتاع.

مع العقاد وأنيس منصور
فى أعاصير الحياة والفكر

حول شخصية عباس محمود العقاد أدار أنيس منصور تاريخ مصر الفكرى والاجتماعى - والسياسى إلى حد ما - خلال سبعين سنة، هى التى نسميها بعصر العمالقة، دراما عصر كامل حافل بالأفكار والتيارات والمآسى، كتبها أنيس منصور كما عاشها، كتبها ببلاغة الأستاذ وبلاغة الأديب وتبليغ الصحفى، أنشأها بأسلوبه المبتكر المتدفق بالحيوية، المندفع بالأفكار، المتميز بالصدق والحرارة والبيان الممتع، فإلى شجرة العقاد الباسقة الممتدة الفروع كأنها جميزة القرية المصرية التقليدية، كانت أجيال أهل الفكر شبابًا وشيبًا تأوى وتتجمع وتفترق، والأفكار تتلاقى والتيارات تصطرع، وعندما مات العقاد انفض السامر واللاعب، ولكن الرواية لم تتم فصولاً، لأن إعصارًا هائلا عصف بحياة مصر وفكرها، وبقى أنيس منصور ليقص علينا القصة حتى نهايتها، والعملاق العنيد راقد على فراشه يرفض الحياة ويرفض الموت، نسميهم جيل العمالقة.

وتسمية العمالقة لا تعجبنى، لأنها بعض أسماء الهيكسوس، أولئك الرعاة الآسيويون المخربون الذين أغاروا على مصر من أواخر أيام

الأسرة الثانية عشرة، فخربوا مؤسساتها العظيمة، وأوقفوا سير حضارتها مدى مائتين وثمان من السنين، من ١٧٨٨ إلى ١٥٨٠ قبل الميلاد. حتى نهض البطل العظيم أحمس الأول فأخرجهم من مصر، وأسس الأسرة الثامنة عشرة، وعادت مصر تواصل سير حضارتها الخالدة.

وما كان جيل العمالقة الذى يعنيه بجيل رعاة مخربين، إنما هم أحفاد أحمس المحرر العظيم، وهم - كما سنرى - تولوا تخليص مصر من مخربين آخرين هم رجال الاستعمار، وتمكنوا من تطهير أرض مصر، وإيقاظ عبقريتها وإعادتها سيرتها الأولى، مصرية صميمة بانية حضارات.

ولكن لفظ العمالقة مصطلح جرى عليه الناس وأعطوه معنى جديدا، ولا بأس لهذا بأن نأخذ بما يتفق عليه الناس. ما دام ذلك يعين على إيصال ما نريد أن نقوله للناس، وتلك فى النهاية غاية كل صاحب فكر وقلم.

وجيل العمالقة هذا جيل عجيب حقًّا من الموهوبين فى كل فن وباب، ظهر فى مصر على دفعات متوالية من أيام الثورة العرابية سنة ١٨٨١ واستمر خصبًا قويًّا متدفقًا حتى أوائل الخمسينات، وهذا الجيل يتقدمه سعد زغلول العظيم حقًّا، أيقظ مصر وعبقريتها من نوم القرون، وخطا بها إلى عالم الاستقلال والوعى المبارك، وأعادها إلى صفوف الأمم الصاعدة، وفتح لشعبها - ولشعوب العروبة والعالم المظلوم كله - أبواب النهوض والكرامة والعلم والفن والرخاء، وهذا التيار العفى من الموهوبين توقف أو قل تراخى من أوائل الخمسينات من هذا القرن، عندما اجتاح مصر إعصار شبيه بإعصار الهيكسوس: حطم الأشجار وأحرق النخيل وترك الأرض عراء. فأحرقت الشمس النبات، ومصر التى كانت روضا زاهرًا غنيًّا بالأشجار العالية من كل نوع، أصبحت حتى ثورة التصحيح

فى مايو ١٩٧١ كأنها صحراء جرداء يظلها سكون الموت.. ذهبت الأشجار وحل محلها جبل ثقيل أجرد من الظلم والخوف والطغيان غطى مساحتها كلها.

ويوم بدأت مصر تواصل مسيرتها من جديد فى ظلال الحرية والقانون تبين للناس أن هذا الجبل الهائل الرهيب كان فى حقيقته تلا من تراب، وقد انهار هذا التل وتغطت أرض مصر الطيبة بتراب رمادى كالح، أشبه بالرماد الذى يتخلف عن الحريق والذى نعانيه نحن اليوم - رغم نصر أكتوبر العظيم - هو هذا الرماد القاحل الذى نسير فيه بجهد بالغ، لأن الأقدام تغوص فى رماد الحريق الذى أطفأناه، ولابد لنا من الصبر والجهد والمعاناة حتى نزيل عن أرض مصر هذا الرماد. ويومها سيخضر روض مصر من جديد وتنبت فيه الأشجار العالية وتضرب فى أرضها جذور الحرية والكرامة والعمل - ويومها ستتجلى مصر للدنيا فى كامل بهائها كما كان يتمناها العقاد وجيل العقاد.

* * *

وهذا الكلام ليس مجرد مدخل بلاغى، وإنما هو كلام فى صميم موضوع حديثنا اليوم، فأنا سأتحدث هنا عن شجرة سنديان باسقة فارعة ممتدة الظلال مما كان ينبت فى أرض العقاد الطيبة قبل الثلاثين سنة، هى شجرة عباس محمود العقاد التى بلغت ذروة نمائها عندما هب الإعصار، وكانت سنديانة العقاد تملأ مصر وقلبها بفيض من العبقرية الباهرة، وافرة الثمر من فكر عربى مصرى نفاذ، وعلم صحيح بغير حدود، مع شعور مرهف بعزة الفكر وكرامة صاحب الفكر، والإيمان بالحرية والخير للناس أجمعين. وهل كان العقاد شجرة واحدة وارفة الظلال؟. لقد كان أكثر من ذلك:

كان روضا مترامى الأرجاء، جمع من ثمار الدنيا كلها ما يحير العقل، وقد عرف الناس عنه الكثير، ولكن الذى لم يعرفوه عنه كان أكثر.

فى هذا الروض الشاسع من الموهبة الرفيعة والثقافة الواسعة والعالم الفياض بالغرائب والمتناقضات - روض العقاد - يقودنا رجل من تلاميذه أحبه ولازمه واحتمل متاعب صحبته والحياة معه، علم من أعلام جيل العمالقة الذى نما ودخل طور الإزهار قبل الإعصار، وعاش مع العقاد ما تيسر للعقاد أن يعيشه بعد الإعصار، وأحبه حبًّا ما أظن أن أحدًا أحب العقاد مثله، ودخل حياته كما لم يدخلها أحد مثله، وكاد العقاد فى وقت من الأوقات أن يطويه تحت جناحه، ولكنه ليس من الطراز الذى يرضى أن ينطوى تحت جناح أحد، فقد استقل عنه وأصبح مع الزمن أستاذًا مثله، رفض أن يكون مؤرخًا للعقاد أو شارحًا للعقاد أو داعية له، رفض أن يعيش عمره على كتب العقاد، كما أخطأ عثمان أمين عندما عاش معظم عمره على كتب محمد عبده: رفض - كما قال - أن يأخذ من عمر نفسه ويضيف إلى عمر العقاد، وحسنا فعل، لأن أنيس منصور نفسه عقل مستقل قوى ونفس جميلة جديرة وحدها بأن يعيش معها الإنسان ويستمتع بها، وموهبة قائمة بذاتها مستقلة بخصائصها، وهو شجرة عالية من أواخر ما نبت فى روض العمالقة ونجا بذكاء وقدرة - وقدر من الله - من الإعصار، وأضاف إلى تاريخ الفكر العربى المعاصر لونا جميلا ممتعا من الفن والأدب، وقد كانت تكون خسارة كبرى لو أن أنيس منصور جعل نفسه تابعًا للعقاد أو رجلًا مثل بوزويل الذى دخل تاريخ الأدب الإنجليزى من باب صغير جدا، فقد سجل بوزويل لنا أحاديث شخصية عبقرية كسول من شخوص الأدب الإنجليزى هو الدكتور صمويل جونسون، ولأنيس هنا كلمة جميلة جدًّا قال: ربما كان ذلك أحد

الأسباب التى جعلتنى لا أشارك كثيرًا فى حفلات التأبين والتكريم للأستاذ العقاد، فقد أحسست إحساسًا مبالغًا فيه أننى سوف أتحول إلى قارئ فى مأتم العقاد، وأن قلمى أو حياتى الأدبية والفلسفية سوف ترتبط بالأستاذ العقاد، كلما ذكروا اسمه ذكروا اسمى.. كما حدث قبل ذلك للأستاذ سيد قطب أو سعيد العريان، أو لعدد كبير من تلامذة العقاد.

ومن خصائص كبار الرجال من أمثال العقاد أنهم أنانيون، وأنانيتهم تصل إلى الافتراس، يريدون منك أن تعشقهم وتقف ببابهم فردًا من أفراد حاشية العبقرى، وهم يغارون ويغضبون إذا أنت انصرفت عنهم، لأن فيهم الكثير من خصائص الغانيات: يعجبهن الثناء ويزهيهن الإطراء ويطالبن الناس بأن يهبوهن حياتهم فى مقابل ابتسامات عابرة، ويغضبن على من يفلت من أيديهن دون أن يكون فى قلوبهن أى شعور بالمحبة نحوه، أو الاستعداد للتضحية فى سبيله. وسارة برنارد غضبت أشد الغضب على أناتول فرانس لأنها لقيته فى إحدى حفلات قصر الإليزيه، وأخرجت سيجارة فلم يتبرع بإشعالها لها، ثم أخرج ساعة جيبه ونظر فيها وقال: معذرة يا مدام برنارد فإن لدى موعدًا. والفنانة التى توصف بأنها أشهر ديفا فى التاريخ همست فى أذن صديق لها: يا له من خنزير! وهل هناك موعد فى الدنيا أهم من الوقوف مع سارة برنارد؟!

ومن خلال كلام أنيس منصور تشعر أن العقاد كان يعجبه أن تكون له حاشية ضخمة، بل فى بعض الأحيان تحس أن العقاد كان يعتقد أنه هو الكون كله، وأن الفضاء كله حاشية له.

* * *

وقد أدرك القارئ أنى أحدثه عن كتاب «صالون العقاد» لأنيس

منصور وهو كتاب ضخم فاتن لا أظن أن كتابًا فى الأدب أو الفكر جذب الناس كما جذبهم، لقد قرأته مع الألوف الذين قرءوه عندما نشر منجما على حلقات فى مجلة أكتوبر، وجريت وراء فصوله المتلاحقة التى كانت أمتع مسلسل عرفته فى حياتى، وأكثرها تشويقًا، ثم قرأته كتابا مجتمعا بين دفتين. قرأته مرة ومرات، وفى كل مرة أزداد محبة له وحيرة من أمره، لأنك لا تدرى إن كان هذا الكتاب تاريخا أو ترجمة حياة أو دراسة، إن أنيس منصور يسميه رحلة، وهو يقول إن كتبه كلها رحلات وأسفار: رحلات فى الزمان أو المكان أو الفكر، وأنيس منصور هو أديب الرحلات فى عصرنا. وأنا بعد أن قرأت صالون العقاد ازداد إيمانى بأن أنيس رحالة مفطور على التنقل والترحل، وأن رحلته الكبرى هى حياته نفسها، وهذا الكتاب - فى نهاية التحليل - وصف لهذه الرحلة، ولكنها فى الحقيقة ليست رحلة إنسان مفرد فى الحياة، إنها رحلة فى عصر كامل، عصر أنيس منصور بكل ما فيه ومن فيه، فهذا شاب مصرى ولد فى المنصورة وبدأ حياته على مثال ما بدأنا كلنا حياتنا نحن الأوساط - بناة تاريخ مصر الحقيقيين - ولكن الله خلقه طلعة قلقا يبحث دائما عن المجهول. والمجهول الأول فى بداية رحلة الكشف هو أنيس منصور، وهو طوال حياته - كما يتجلى فى الكتاب - يبحث عن نفسه، وهو يجدها مرة وتفلت منه مرات. وفى نهاية الكتاب عندما يموت العقاد ويشيعه أنيس إلى قبره تشعر أنه يتأهب لرحلة أخرى بحثًا عن نفسه مرة أخرى. والبحث عن النفس دليل صحة وحيوية. و«جيته» كان يشكو من قلق نفسه وحيرته، فى أولى سنواته فى فايمار حتى لقى الفيلسوف هردر فقال له هذا الرجل: ولماذا تشكو من القلق يابنى ؟! إنه نعمة كبرى، إنه دليل حياة وهو لباب التقدم، والألمان يسمون هذا النوع من القلق المبارك die unruhe ويعتبرونه سر قوتهم.

وفى أثناء بحثه عن نفسه وجد لنا ناسًا كثيرين نحبهم، ونسعد بأن نسمع عنهم كما نسعد بالقراءة لهم، وأنيس فى الغالب يقدم لنا رأى العقاد فيهم أو حكمه عليهم، وقليلاً ما يعلق هو على هذا الحكم إذا كانت له بالرجل صلة قوية مثل كلام أنيس عن عبد الرحمن بدوى وهو يحبه ويعجب به ويذكره بكل خير، ولكن العقاد يقول عنه إنه جاهل. ولويس عوض عنده جاهل، وكذلك منصور فهمى ومصطفى صادق الرافعى، وهنا يبدو لنا العقاد هدامًا محطمًا مستهترًا بأقدار الناس إلى حد بعيد، وأحيانا يبدو لنا من خلال رحلة أنيس معه أنه طفل شرير عربيد، وأن الناس عنده لعب ودمى، فهو يهوى عليهم فى قسوة غير معقولة. فليس من الصحيح ولا من الأدب أن يقال عن عبد الرحمن بدوى أو لويس عوض أو منصور فهمى إنهم جهلاء، ونستعمل هنا منطق العقاد نفسه فنقول: جهلاء بماذا يا مولانا؟ إن كل إنسان فى الدنيا عالم بأشياء وجاهل بأشياء، وكل منا عالم جاهل ولا ضير فى ذلك، وإنما الضير فى أن يظن الإنسان أنه عالم بكل شىء، والعقاد نفسه كان يرى أنه عالم بكل شىء بل عليم بكل شىء. وهو فى حساب نفسه لا يخطىء، وكلامه عن الآخرين أحيانًا يأخذ طعمًا مريرًا غير سائغ، وفى الكثير منه ما يؤاخذ عليه العقاد، وليكن رأيك فى جان بول سارتر ما يكون، ولكنك لا تستطيع أن تقول إنه جاهل لا ولا كير كجود أو سيمون دى بوفوار. وهل يدخل فى العقل أن كارل ماركس جاهل؟ ولكن هذا هو العقاد، ينظر إلى الدنيا والناس وكأنه صحب رسول الله فى المعراج ورأى الدنيا وأهلها من السماء السابعة، ورسول الله طلب الرحمة للناس ولكن العقاد بصق عليهم، ولكننا لا نأخذ هذا الموقف من العقاد مأخذ الجد، فما كان الرجل بالشرير ولا المحطم ولا المستهتر بأقدار الناس، إنما هو رجل أوتى مواهب نادرة،

وصل إلى غايات وآفاق بعيدة بجده وجهده وتعبه وزهد فى خيرات الدنيا كى يصقل عقله ويحول نفسه إلى فكر مجرد، ولهذا فقد كان يغضب إذا كان يرى بعض الناس يصلون إلى ما وصل إليه هو بجهد أقل، وهذا هو إحساسى عندما أقرأ كلامه عن توفيق الحكيم، وتوفيق الحكيم لم يصل إلى ما هو فيه دون تعب ولا جاءته الشهرة وهو نائم. كما حدث مع الشاعر الإنجليزى اللورد بايرون، ولكن تعب كثيرًا وقرأ وجرب وحاول كثيرًا. وعندما استقر فى مكانه واحدًا من أعلام الفكر العربى كان قد خلف وراءه سنوات طويلة من الجهد والتعب، ولكن العقاد لم يره إلا وهو فى مقعده فى شرفة العباقرة فاستاء من ذلك وقال: إنه يكتب وكأنه ينسج التريكو، ونحن لإعجابنا بالعقاد نتحمل منه الكثير، بالضبط كما نفعل مع المتنبى، فقد كان المتنبى مغرورًا تياها سليط اللسان، ولكنه المتنبى، هو أن تأخذه كما هو بحلوه ومره، كما تأخذ الوردة بشوكها أو تدعها، وكذلك الحال مع العقاد.

* * *

هذا الكتاب إذن رحلة طويلة ممتعة مع الفكر المصرى من أيام محمد عبده إلى اليوم، وأنيس منصور عندما قام بهذه الرحلة وجعل العقاد بدايتها ومنتهاها يشبه السندباد الذى كان يطوف الدنيا ويرى الأعاجيب ويتحدث عنها ويعود كل مرة سليمًا معافى إلى البصرة، فالبصرة عند السندباد لم تكن الموضوع ولا القصد، إنما هى الميناء الذى سجل فيه سفينته وحمل علمها ليشق به البحار. وابن بطوطة كانت ميناؤه التى لا يزال يعود إليها هى مكة، يحج ثم يطوف بالدنيا ثم يعود إليها، لأنها مناط حبه وموضع عشقه، كذلك العقاد بالنسبة لأنيس منصور: بداية كل

رحلة ونهايتها، وأنا عندما قرأت هذا الكتاب لم أكتشف العقاد بل اكتشفت أنيس منصور وجيله، وهو جيل قلق متعب بذل الكثير جدًا ليصنع نفسه، وأنا فى صفحات هذه الرحلة أتتبع ذلك الشاب الصغير الذى خرج من المنصورة ليبحث عن حقائق الكون، وفى طريق بحثه عثر على العقاد - أو تعثر فيه - ووجد فيه جامعة كاملة، فأصبح يدرس فى جامعتين: جامعة القاهرة وجامعة العقاد، ولكنه فى حديثه يكشف لنا جامعة ثالثة كان لها الأثر الحاسم فى تكوين نفسه أو صنع نفسه إذا شئت: جامعة الدنيا، وانظر إلى أنيس الطالب الجامعى ثم الأستاذ الشاب وهو حائر بين مركز جمعية الإخوان المسلمين فى إمبابة وصالون العقاد فى مصر الجديد ودير الآباء الدومينيكيين فى شارع مصنع الطرابيش فى العباسية، ودير الفرنسسكان فى الموسكي، واجتماعات الشباب وجمعية المفكرين الأحرار، انظر إلى ذلك كله وسر مع أنيس منصور فى صفحات كتابه تجد أنك قد أخذت أصدق صورة عن الدوامات الفكرية التى تعرض لها أهل الفكر فى مصر خلال الأربعينات والخمسينات والستينات، وأنيس يرينا أن العقاد كان بالفعل قطبًا عظيمًا من أقطاب هذه الحركة الفكرية الواسعة التى كانت زاهرة فى مصر قبل الإعصار وجبل التراب الهائل، وإنك لتتعجب ما الذى كان يدفع أنيس إلى هذه الحركة كلها، والمشوار من إمبابة إلى مصر الجديدة كان عنده «فركة كعب» وهو فى الواقع فركة جسم أو إضناء جسد، ولكن أنيس فى قلقه وبحثه عن المعرفة قام بهذا المشوار أكثر من مرة، بل ذهب إلى شارع محمد على ليلقى شخصًا يهوديا مشبوها يسمى جاك كوهين، وكان يحسب أنه يجد عنده شيئا من الحكمة فلم يجد إلا الضلال، والعقاد نفسه قال له إن هذا اليهودى خدعة كبيرة، ولا ندرى ما الذى رمى بهذا اليهودى على باب العقاد.

والذى تشعر به وأنت تقرأ هو أن العقاد كان مغنطيسًا هائلًا يجتذب نحو نفسه كل صاحب فكر ورأى. وصالونه فى الحقيقة كان مجمعًا فكريًا حقيقيًا تلقى فيه مفكرين ذوى عقل وحكمة وتصاون ورزانة من أمثال زكى نجيب محمود، وعلى أدهم، وتجد فيه رجالاً وهبوا أنفسهم للعقاد وساروا أقمارا تدور حوله مثل طاهر الجبلاوى، وعبد الرحمن صدقى، وتجد فيه شبابًا حائرًا يطلب المعرفة والحقيقة مثل أنيس منصور وطبقته من المفكرين الأحرار. والرجل كان قارئًا عجيبًا وكان فهامة أعجب، فقد كان يقرأ أعسر الكتب فى وقت لا يصدق.

وكتب كبار الفلاسفة وفطاحل الفكر الغربى والعربى كانت عنده بديهيات، وأنا شخصيًا كنت أعجب بالعقاد وأحبه، ولكنى لم أكن أتحمل مجلسه طويلاً، لأننى كنت لا أستريح للعبته الحبيبة إلى نفسه وهى تحطيم الناس كأنهم قوارير، وفى يوم من الأيام سمعته يقول: إن الأمريكيين سطحيون، وعجبت جدًا من أن عقلا نابها مثل عقل العقاد يصف شعبًا كاملاً تعداده مائتا مليون (إذ ذاك) بأنه سطحى، فاستفسرته عن ذلك ولاحظ أننى أنكر ما قال، وتلك كانت عنده جريمة فقال كلامًا كثيرًا ولكن الله ألهمنى كيف أتقى شر غضبته، وهو نفسه الذى أعطانى مانعة الصواعق، فقد قال فى ختام حديثه: أما زلت معجبًا برعاة البقر يا مولانا؟ فقلت: لا أدرى يا أستاذ، ولكننى أرى فى الأمريكيين الأول شبها لك. فهؤلاء المهاجرون الأول إلى العالم الجديد وصلوا إلى الشاطئ الأمريكى لا يحملون إلا الإيمان والثقة فى النفس وإرادة النجاح والعزيمة على النصر كما وصل العقاد من أسوان إلى القاهرة، وأولئك المهاجرون لم يقنعوا باحتلال شريط من الساحل الشرقى - وكان فيه غناء وكفاية - بل استمروا يزحفون بشجاعة وقوة وعزم حتى وصلوا المحيط الهادى،

بالضبط كما أصر العقاد على أن يحصل ثقافة الدنيا كلها. هم وضعوا قدما على ساحل الأطلسى وأخرى على ساحل المحيط الهادى، كما حمل العقاد علم العرب فى ذراع وعلوم الغرب فى ذراع. فكيف يكونون بهذه الحال ثم يكونون سطحيين؟ وأنت ياسيدى قرأت إعلان الاستقلال ووثيقة الدستور التى كتبها توماس جيفرسون وجون آدامز، وقررا فيها ببساطة تروع النفس ما تنادى أنت به: حرية الإنسان وكرامة الإنسان وحق كل إنسان فى الحياة والأمن وطلب السعادة، واليكسيس دتوكثيل قال: إن أمريكا بلد الغد، لأن أساس مجتمعها هو حرية الإنسان وكرامة الإنسان وأنت يا سيدى تلتقى مع دتوكثيل فى ذلك كله.

ومثل هذا الكلام - لحسن حظّى - نزل بردًا وسلامًا على قلب العقاد، ولم أكن أعرف أنه كان مشتغلا إذ ذاك بتأليف كتابٍ عن توماس جيفرسون طلبته منه مؤسسة فرانكلين، فنظر إلى طويلاً وقال على طريقته: إن وجود عدد من المفكرين بين الأمريكيين لا يتنافى مع كونهم سطحيين، كما أن بيتا واحدًا من الشعر الجيد لم يصنع من على بن الجهم شاعرًا عظيمًا.

وانتقلت كرة الحديث منى إلى غيرى وحمدت الله، وعندما هممت بالانصراف قال لى: ولماذا لا تبقى معنا للغداء يا فلان؟.. إننا لا نأكل شيئًا يذكر ولكنه يكفينا ! فشكرته أصدق الشكر وخرجت أحمد الله على السلامة، واعتبرت هذه الدعوة من العقاد أعظم تكريم لى، وقد اعتذرت عنها خوفًا من أن تبدو منى على الطعام كلمة تجعلنى قارورة يحطمها الأستاذ.

قلت لك: إننى قرأت هذا الكتاب أكثر من مرة، وفى كل مرة أخرج

منه بجديد، لأنه صورة عصر أو قاموس عصر، وكل الفكر الإنسانىّ هنا، وأنيس منصور يعرف كيف يأتيك بلمحات قليلة وألفاظ سريعة كأنها ومضات برق فى ظلام الليل فتهز وجدانك كله وتبعث بك فى آفاق من التفكير بلا نهاية، واقرأ مثلا الحوار الممتع بينه وبين الدكتور محمد عبد الهادى أبى ريدة عن شفاء النفس والإيمان، والمقارنة بين ديكارت والغزالى، وديكارت هو قاعدة الفكر الغربى كله، والغزالى هو محور الإيمان الإسلامى كله، وعندما تقرأ المقال عن المنهج ثم المنقذ من الضلال للغزالى فأنت قد وضعت قدما على ساحل المحيط الأطلسى وأخرى على ساحل المحيط الهادى، وهذا - على صورة ما - ما فعله العقاد وهذا أيضا - على صورة أخرى - ما فعله أنيس منصور عندما جمعا بين فكر الإسلام وفكر الغرب، وفكر الإسلام إيمان مثل إيمان الغزالى. وفكر الغرب عقل مثل عقل ديكارت.

* * *

هذا ليس كتابًا واحدًا بل هو مكتبة حافلة ودنيا كاملة. دنيا شاب باحث عن النفس والحق والحرية والعلم وكل ما له قيمة فى الحياة، وأنا فى سعيى فى الحياة أشبهت أنيس منصور فى بعض متاعبه، ولكنى لم أبذل هذا الجهد البالغ، ولهذا فإننى أحببت كل لحظة من تلك الحياة التى عاشها ووصفها فى كتاب العقاد أجمل وصف وأحسنه، وأنا مثله رحالة ولكنى لم أطف بالدنيا فى مائتى يوم بل فى سبعين سنة، والمهم أننا تلاقينا فى الحياة والعمل والفكر والمحبة وفى كل ما هو جميل فى هذه الحياة، وتلاقينا فى صالون العقاد، ولم أكن من رواد الصالون، ولكن أنيس منصور أحسنٍ تعويضى عن ذلك. ولقد جعل العقاد محور بحثه عن الحق والحكمة وحسنا

فعل، لأن العقاد رغم ما يبدو من عنفه وتعاليه كان إنسانًا رقيقًا جدًا وحساسًا جدًا، وكان زاهدًا فى كل لطائف الدنيا عدا الفكر والحرية والكرامة الإنسانية وتلك كانت معبودته أو آلهته الثلاثة، وكان العقاد يستطيع أن يصل إلى الوزارة والباشوية وكل ما حفى فى سبيله منصور فهمى وطه حسين، وطه حسين شابت صفاء نفسه الوزارة وأضرت بفكره الباشوية، لأنهما أدخلاه فى دوامة السياسة والمطامع، أما العقاد فقد خاض معركة السياسة والدفاع عن وطنه معظم سنوات شبابه وكهولته، فقد كان كاتب الوفد الأول، وأعظم المدافعين عن الحرية، وكان أعلى شجرة فى غابة العمالقة بعد سعد زغلول. وسعد زغلولهو الرجل الوحيد الذى أحبه واحترمه عباس محمود العقاد، وعباس العقاد كان فيرجيل الذى قاد أنيس منصور فى المطهر، وكان أيضًا بياتريس فى زيارته للفردوس، وكتاب صالون العقاد كوميديا إلهية من طراز فريد، ومهما أحدثك عنه فما أنا ببالغ منه ما أريد، فما رأيك فى أن تحسن إلى نفسك وتعود معى إلى قراءة هذا الكتاب الممتع المحير، المتعب المريح، الحلو المر، القديم الجديد، الطويل القصير؟.

المواطن والقالب والحذاء الضيق

من تقاليدنا التاريخية التى نرعاها بالعناية البالغة أننا نستقبل الحكام وولاة الأمور الجدد بالهتاف وأشعار المديح والخطب، ونودعهم عند الموت أو العزل بالإهمال ثم النسيان، ولا بأس بما يتيسر من اللعنات وقلة الأدب والحياء.

وهذا التقليد الكريم يصوره لنا الشيخ تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب السبكي، صاحب طبقات الشافعية الكبرى، فى كلامه عن عزل أحد القضاة وتولية خلف له، فقد صدر قرار السلطان بعزل القاضى وتولية خلفه، وهو فى الطريق إلى بيته فى موكب حافل يحف به الناس والخدم والحشم، وكلهم يدعون لمولانا القاضى ويحملون له الهدايا يوصلونها إلى بيته، وفى الطريق التقى موكب القاضى القديم بموكب القاضى الجديد ويعرف الناس الخبر، فتحول كل رفقاء القاضى القديم بدعواتهم وهداياهم إلى موكب القاضى الجديد، وتركوا القاضى القديم نفسه وحيدا على بغلته، وواصل السير حزيناً كئيبا، فإذا هو فى طريقه هتف به رجل جاء يعدو خلفه: البغلة يامولانا.

أى بغلة؟

- بغلة مولانا القاضى.

- وفهمها الشيخ فترجل عن البغلة وسلمها للرجل وسار على رجليه أشد كآبة، وعندما مر بالفرن لم يجد الفران فى انتظاره على العادة برغيف مولانا القاضى، ورغيف مولانا القاضى كان رغيفًا عظيمًا قطره متر، وكانت العادة أن يسير به الفران على صينية عظيمة يحملها على رأسه خلف القاضى، حتى يوصله بنفسه إلى البيت ولسانه يلهج بالدعوات، وهذا الفران كان متعهد توريد خبز الجرايات للمشايخ الكبار وعلى رأسهم القاضى، ووقف القاضى أمام الفرن فقال له الفران:

- عاوز إيه ياسيدنا الشيخ؟

وسيدنا الشيخ نظر إلى الفران، ثم انحنى على قفص خبز وأخذ ما أراد ونقد الرجل الثمن، ووضع الخبز تحت إبطه وسار.

وهتف به الفران:

- خذ نقودك ياسيدنا الشيخ، فإننى لا آخذ المال الحرام ولا أدخله بيتى.

فنظر إليه القاضى وقال:

- الآن فقط عرفت أن مالى حرام!

وهذه التقاليد العظيمة من النفاق والرياء والأدب وقلة الأدب، هى جانب من القوالب الأخلاقية والسلوكية التى ورثناها عن عصور الظلم والنهب والفوضى السياسية والاجتماعية التى عشناها فى تاريخنا الطويل.

ولكننا - لس غير مفهوم - ننسى هذا التقليد عندما نشيع جنائز الجلادين من حكامنا، فعندما مات خمارويه بن أحمد بن طولون وكان مثل أبيه طاغية صغيرًا ولصًّا كبيرًا، خرجت نسوان مصر كما يقول

أبو المحاسن فى «النجوم الزاهرة» يولولن ويلطمن الخدود كأن كلّا منهن فقدت ابنًا عزيزًا، وخمارويه هـذا أخذ فى إحـدى سنوات حكمـه غير السعيد كل أموال مصر، وأنفقها فى تزويج ابنته قطر الندى من ابن عدوه اللدود خليفة المسلمين فى بغداد، وكان جهاز العروس مـائة هـاون من الذهب، وبنى لها خمارويه بيتًا تنام فيه كل مرحلة من مراحل الطريق، والمرحلة بين ٣٥ و ٤٠ كيلومترا، فاحسب أنت عدد القصور، وكل هذه الأموال نهبت من المصريين وجمعت بالضرب بالسياط، وكان أبوه أحمد بن طولون إذا سمع أن رجلًا يملك ألف دينار أخذها وهدم داره بحثًا عن ألف دينار أخرى، وحبسه تحت الأرض حتى يدفع ألفًا ثالثة.

وشيء شبيه بذلك حدث عندما عزل الخديو إسماعيل بأمر السلطان العثمانى عبد الحميد فى ٣٠ يونيو ١٨٧٩، فقد خرج موكبـه من قصر عابدين إلى محطة مصر. وفى ميدان المحطة وقف ألوف الناس يودعون الطاغية بالمناديل والدموع، وازدحم فناء المحطة بالعربات وفيها السيدات المحجبات من نساء الأسرة وحريم الباشوات يسكبن الدموع الرخيصة على الحاكم المنفى الرخيص.

وفى الاسكنـدرية ازدحم النـاس فى الطريق إلى المينـاء حتى سدوا الطريق، والخديو المعزول سار موكبه فى الطرق الخلفية حيث وقفت بنات بحرى فى النوافذ يولولن على إسماعيل، وليس فى ذراع واحدة منهن أو فى أذنها قطعة ذهب، لأن إسراف إسماعيل وظلمه جـردهن كما جـرد أزواجهن من كل شيء له قيمة، وإسماعيل الذى كن يبكينه ركب لنشاً تتبعه ٢٩ لنشا أخرى تحمله هو ومن معه ومتاعه وذخائره إلى اليخت المحروسة، ومن بين تلك الذخائر ثمانية ملايين من الجنيهات الذهبيـة

الإنجليزية، والرجل الذى خرج بذلك المال المسروق كله خاف أن يذهب إلى منفاه فى بروسة تجاه استامبول، لأنه لو وصل إلى هناك بهذا المال فسيقتله السلطان حتمًا ويأخذ أمواله. وهذا أيضًا قالب سلوكى سلطانى قديم، والخديو توفيق الذى خلف أباه قال فى أول مجلس وزراء عقده بعد توليته: أما خطر بباله أن يترك لنا مليونا منها نستعين بها على أزمتنا الراهنة، واليخت المحروسة ذهبت بإسماعيل إلى جنوة.

وإسماعيل هذا الذى بكيناه واحتشدنا لوداعه جعل مصر منذ ولايته سنة ١٨٦٣ ضيعة واحدة، يملك هو تسعين فى المائة من أرضها، وثمانية فى المائة من الباقى ملكته الأسرة الخديوية، والباقى وقدره اثنان فى المائة يملكه شعب مصر كله، وكان هو التاجر الوحيد: يشترى القطن والمحاصيل الزراعية بالملاليم ويبيع بالجنيهات، وكان الخديو سعيد يصدر من محاصيل مصر بما يقدر بثلاثة ملايين ونصف من الجنيهات الإنجليزية فى السنة، فجاء إسماعيل فارتفعت قيمة الصادرات فى أيامه إلى ١٤ مليون جنيه فى السنة، ثم زادت ابتداء من ١٨٧٠ إلى ثمانية عشر مليونا، وكان هو التاجر المصدر الوحيد، واشتهر أمره فى الدنيا بأنه أغنى أهل الأرض جميعا، فى الوقت الذى فيه أجمعت أقوال زوار مصر جميعًا على أن الفلاح المصرى كان من أفقر أهل الأرض، ومن غرائب ما يؤلم النفس أن تقرأ فى كتاب «أدمون أبو» عن مصر إسماعيل أن أحد ضيوف إسماعيل من الفرنسيين قال بعد أن ملأ بطنه فى إحدى ولائم إسماعيل: الآن أكلت طعام ثلاثين فلاحًا مصريًا فى شهرين.

وهذا الغنى الفاحش اقترن ببخل مهين، فقد كان ضنينًا بماله، كريما من أموال مصر، مثله فى ذلك مثل فؤاد وفاروق. وعندما أحس إسماعيل بهذا

الغنى اختل توازنه، وأصابه عمى البصيرة فلم يعد يعرف قدر نفسهوظن أنه من أكبر ملوك الدنيا، وأسرع إليه الأفاقون من نواحى الأرض جميعا يتقدمون بمشاريع لتحويل مصر من قطعة من أفريقية إلى قطعة من أوربا، والباشا ينشئ السكك الحديدية ومكاتب التلغراف ومصانع السكر من أموال مصر لا من ماله، ولكن الحصيلة كلها تذهب إلى خزائنه، وله على كل شيء عمولة، فحفلت مصر بالأفاقين واللصوص والفاسدين والفاسدات من كل صنف، لأن باشا مصر وتاجرها الوحيد، كان مستعدا للدخول فى أى مغامرة مالية تحت ستار نقل مصر إلى أوربا، ومال مصر نفد، فانصرف إلى الديون. والخديو سعيد ترك مصر مدينة بأكثر من ستة عشر مليونا من الجنيهات، فوصلت فى أواخر حكم إسماعيل إلى مائة وستين مليونا، وألوف الأوربيين من المغامرين وفدوا على مصر فى بذلات ممزقة وقبعات قش، وغادروها سادة عظامًا بالفراك والقبعة السيلندر العالية، وألوف المصريين الذين كانوا مساتير أول عصر إسماعيل أصبحوا متسولين فى آخر أيامه، وهذا من ذاك، وكل ما استورده إسماعيل للبذخ والتباهى تلاشى بعد عزله بقليل، وكل ما حمله الأوربيون من صناعات الغرب وفنونه احتفظ بها شعب مصر، لأن شعب مصر الفقير مالاً كان أغنى قلبًا وحضارة من إسماعيل الغنى، وشعب مصر كان غنيًا بعلمائه، ولكن إسماعيل الذى أراد أن يقود ركب الحضارة المصرية كان أقرب ما يكون إلى الأمية: كان لا يقرأ العربية ولا يكتبها، وكان يتكلم تركية محطمة يضحك منها سامعوه من الأتراك، وفى ذات مرة عجز السلطان عبد العزيز عن فهم كلام إسماعيل بالتركية فعينوا مترجما يترجم تركية إسماعيل إلى تركية السلطان، أما الفرنسية فكان يتكلمها بلغة الشيالين، ويكتبها بخط الأطفال، وقد حكى جوذى (عربجى)

إنجليزى كان يعمل فى خدمة إسماعيل، أنه كان يقرأ الصفحة الواحدة من القصص الفرنسى فى نصف ساعة، ونادرًا ما صبر على قراءة صفحتين، والغنى الفاحش عند الحكام مع الفقر المدقع عند المحكومين، قالب سلوكى سياسى توارثه حكامنا فى كل بلادنا.

ومن بين ما جلبه الخواجات المغامرون إلى مصر خلال عصر إسماعيل، عروسة المولد للبنات والحصان الحلاوة بفارسه للأولاد. ذلك أن عروسة المولد التى نحسبها من صميم الفن الشعبى عندنا إيطالية جلبها إلى مصر الإيطاليين والصقليين، الذين وفدوا علينا يطلبون الكسب بأى طريق. وفى البلاد التى أتوا منها كان الناس يصنعون هذه الدمى السكرية فى مناسبات الأعياد وموالد القديسين، وكان المصريون - شأنهم فى ذلك شأن بقية العرب والمسلمين - لا يعرفون لعب الأطفال، لأن الطفل لم يكن له فى حياتهم وجود، والطفل كما نعرفه نحن اليوم إنسان قائم بذاته يجتاز مرحلة لها خصائصها الجسمية والخلقية والنفسية، لا وجود له فى حضارتنا، إنما هو عندنا رجل صغير أو امرأة صغيرة، وواجبنا أن ندفعه دفعًا لكى يصبح رجلاً أو امرأة بأسرع ما نستطيع، ولهذا فقد كنا نعامل الطفل معاملة رجل، فنحرم عليه اللعب والجرى والضحك، ونطالبه بأن يكون وقورًا عاقلاً ساكنًا مؤدبًا، وتاريخنا الحضارى لم يعرف شيئا اسمه ملابس الأطفال، وإنما هى ملابس الرجال والنساء فى مقاس صغير، والفلاح المصرى الطفل يلبس نفس الجلباب ويدخل رأسه فى نفس اللبدة الشائكة التى تكتم أنفاس مخه وتجعله يبدو مخلوقًا مضحكًا. فلا هو طفل ولا هو رجل، والبنت تلبس نفس جلباب أمها وتعصب رأسها بنفس المنديل، ومن سن الثانية عشرة يزوجونها وتصبح امرأة، وكل كيانها وعقلها كيان صبية أو طفلة وعقلها. والزوج - وهو فى الغالب صبى

صغير - يريد أن يتعامل معها على أنها امرأة، فتكون النتيجة أننا نصنع كوارث لازيجات، والمسكينة قد تحمل وتلد وهى بعد طفلة، وقد تطلق وتعرف ذل الطلاق وهى بعد «عيلة»، وهذا كله كان يجرى ولايزال، وهو جزء من الأمية المطلقة التى نعيشها، لأن أميتنا ليست أمية قراءة وكتابة فحسب، ولكنها أمية حياة وتربية وسلوك، إن شكل الحياة كلها أمى، لهذا لا عجب أن تجد عندنا مواطنين يحملون شهادات وهم أميون. والأطباء المصريون هم الوحيدون فى العالم المتحضر الذين يعينون محصلا للأتعاب ويسمونه ممرضا، ويأخذون الأجر قبل الكشف فضلا عن العلاج، لأن الأجر أو الأتعاب مقدمة عندهم على العلاج، وهذا ناشىء من أنهم أميون فى الإحساس والموقف من الحياة، لأن الطبيب الحقيقى يقدم العلاج على الأجر، لأنه طبيب أولا وطبيب آخرًا، ولا خوف على الأتعاب أبدًا، وفى أوربا كلها وأمريكا أيضًا تدخل وتكشف أولا، وفى خروجك تقدم لك الممرضة مطالبة مطبوعة تدفع بمقتضاها، وإذا كان الذى يعالجك هو طبيبك فإن المطالبة المالية تأتيك بعد ذلك بشهور. أقول إننا لم نكن نعرف فى الأعياد والموالد إلا بعض أصناف الحلوى مثل الحمصية والسمسمية فجاء هؤلاء الإيطاليون وسألوا إن كان لدينا هنا شىء يشبه عيد الميلاد أو ما يسمونه بلغتهم ناتاليا، فقيل لهم عندنا مولد النبى، فأتوا بالقوالب وصنعوا عرايس المولد وأحصنته، فأما العرايس فهى فى صور النساء الأوربيات فى القرن الماضى بما فى ذلك الكورسيت والجوبون الواسع المحمول على قفص من الخيزران، ثم من الحديد بعد ذلك، مثبت فى الوسط والصدر، وتزين العروسة بعد ذلك بالمروحة الأسبانية والتاج أو التيارا على الرأس، وهى دائما تضع يديها فى خصرها، فلا يمكن أبدًا أن تجد عروسة تضع يديها بصورة أخرى، لأننا هنا محكومون بالقالب الذى

أتى به الإيطاليون إلينا.

أما الحصان وفارسه فهو الفارس الأوربى بحصانه وسيفه، وقبل خمسين سنة كانت عرائس المولد وأحصنته تصنع بصورة أجمل وأحسن، ولكننا نستعمل نفس القوالب بلا أدنى تغيير جيلًا بعد جيل.

ثم تجد بعض من يتكلمون فى الفن الشعبى يقولون لك: إن عروسة المولد ترجع إلى العصر الفاطمى وهذا خطأ فادح، فما عرف المسلمون فن النحت إلا فى نطاق ضيق جدًّا فى زخارف الحوائط والصناديق الصغيرة وزينة الحدائق، وأرقى ما وصل إليه فن النحت عندنا هو تمثال العنقاء البرونزى الذى يرجع إلى العصر الفاطمى فعلًا، وهو تمثال بغيض شائه، كل قيمته تاريخية لا فنية ولا جمالية، ومثله فى ذلك مثل أسود بهو السباع فى غرناطة، فهى أسود قبيحة بدائية، وهى الشىء الوحيد القبيح فى قصور الحمراء، ويليها فى القبح صور سلاطين غرناطة، أقصد صورهم الأخلاقية والإنسانية، فباستثناء محمد بن نصر بن الأحمر منشئ دولة غرناطة وسلطان ثان يسمى أبا الحجاج يوسف الغنى بالله لا نجد أمامنا إلا سفاحين ولصوصًا.

أقول إننا أخذنا قوالب السنيوريتا لأولادنا، وظللنا نقلدها حتى اليوم، لأننا نحب القوالب، وقد بقى لنا من الأصل الإيطالى -إلى جانب الشكل المشوه- لفظ السنيورة، وهو لفظ Signoha الإيطالى فنحن نقول إن فلانة جميلة كأنها سنيورة، واستعارة هذا اللفظ للمرأة الجميلة يدل على أننا فى القرن الماضى، رأينا النساء الأوربيات أجمل من نسائنا بمراحل، ولهذا وصفنا الجميلة بأنها سنيورة..

ومن أمثلة ما أتانا به الخواجات فى ذلك العصر صندوق الدنيا، واسمه

الحقيقى السفيرة عزيزة، وفقراء الإيطاليين أتوا بلادنا بالسفيرة عزيزة، ذلك الصندوق ذو المنظارين المكبرين، وأهم ماكنا نرى فيه صورة السفيرة عزيزة نفسها وهى امرأة بيضاء سمينة وجميلة بمفهوم العصر مضطجعة على أريكة والصورة نفسها إيطالية، وكذلك اسمها، فالسفيرة هى La Seuera ومعناها القاسية، وكل امرأة جميلة يتغزل فيها الناس ويصفونها بأنها قاسية أو عزيزة المنال أو عزيزة فحسب. والإيطاليون سموها «لاسفيرا أزيزا» وأخذناها منهم، وقد اغتنى الفقراء الإيطاليون الذين أتوا إلى مصر يتسولون بالسفيرة عزيزة وأصبحوا أصحاب مقاه أو فنادق أو حانات. وورثنا عنهم صناديق الفقر هذه جعلناها شغلانة ومادة حياة، وألوف المصريين عاشوا حتى بلغوا أرذل العمر وهم يحملون على ظهورهم صندوق السفيرة عزيزة واتفرج ياسلام، عزيزة خارجة من الحمام.

وتمثال السنيورة الذى تحول إلى عروسة المولد، وصندوق الدنيا أو السفيرة عزيزة مثالان من حبنا للقوالب وتمسكنا بها، لأننا نحب أن نصوغ كل شيء فى قوالب، فالعلم عندنا قوالب، والفن قوالب، والوظائف قوالب، وحياتنا كلها قوالب.

وأكبر ما يصور لك القالبية فى تاريخنا وحياتنا أن الدول الإسلامية كلها مقاسات مختلفة لقالب سياسى واحد يتكون من أربعة عناصر: الخليفة أو السلطان، ثم الوزير وهو فى نفس الوقت جابى الضرائب، ثم السياف الذى يقطع الرقاب وهو رمز القانون وتطبيق القانون فى تاريخنا، وأخيرا الجندى المرتزق الذى يضرب أهل البلد أو يجلدهم ليخضعهم للسلطان، وينتهى أمره دائما ووفقًا للقالب بأن يضرب الخليفة أو السلطان نفسه أو يحل محله ويصبح هو السلطان، كما حدث فى العصر المملوكى.

والمملوكية هى الصورة الأخيرة لقوالب الحكم والسياسة فى كل دولنا، فالخليفة أو السلطان يشترى المماليك ليضرب بهم الناس، وفى وقت من الأوقات يتبين المملوك أنه أداة قوة الخليفة أو السلطان، وما دام هو أداة القوة فهو القوة، وما دام هو القوة فليحكم بنفسه، لأن الخليفة يصبح بالضرورة طفيليا أو زائدة دودية، وتاريخ الدول الإسلامية كلها لا يخرج عن هذا القالب الجامد، فالدولة الأموية هى العباسية وهى الفاطمية والعثمانية، وفى تاريخ مصر بالذات تصل القالبية التاريخية إلى ذروتها، فالدول الطولونية، والإخشيدية، والفاطمية، والأيوبية والمملوكية، والعثمانية، كلها نفس الشيء، كلها مقاسات مختلفة لنفس الحذاء، وأحمد بن طولون هو محمد بن طغج الإخشيد، وهو المعز لدين الله، وهو صلاح الدين، والمعز عزالدين أيبك أول سلاطين المماليك البحرية، وهو الظاهر سيف الدين برقوق، أول سلاطين المماليك البرجية، كلهم نفس الرجل كل واحد منهم أقام نفس الدولة وصبها فى نفس القالب، كلهم حذاء واحد بمقاس مختلف، وكلها أحذية ضيقة تؤلم لابسها ثم تعوقه عن المسير وتجمده فى مكانه، ولابسها هو الإنسان المصرى الذى أرغموه طوال تاريخه على لبس الأحذية الضيقة حتى اعتادها ولبسها ووقف فى مكانه ساكنا جامدا، لأن المسير بالحذاء الضيق مؤلم وفى مكانه هذا تجمد أو تخشب أربعة عشر قرنا، وجاء الغزو السياسى والحضارى الغربى فحطم القوالب القديمة، وبدأنا نتخلص من القالبية، ولكن الكثيرين جدا منا يبكون عصور القوالب وينادون بالعودة إليها والدخول فيها، ويقولون إن هذه تقاليدنا الأصيلة، وهذه هى عصور السلف الصالح.

ومن أغرب مظاهر القالبية السياسية أننا قبل الثورة كنا نقول إن الحياة الدستورية معناها القالب الوفدى، فالحكومة الدستورية لابد أن

تكون وفدية وإلا فهى ليست دستورية، وقد كان هذا صحيحا فى الماضى ولكن أعجب ما ترى من التمسك بالقالبية السياسية، هو أن بعضنا يرى أن حياتنا اليوم أصبحت دستورية ديمقراطية فقالوا دستورية؟ إذن فلابد أن ندخل القالب الوفدى، ونقول لهم يا أصحابنا إن هذا القالب عتيق وضيق ولم يعد يصلح، إن الزمان تغير. ما كان يصلح فى الأربعينات لا يصلح للثمانينات، ومصطفى النحاس يمكن أن يحكم مصر من قبره، فيكون الجواب: ولكن القالب مازال عندنا ومادام عندنا فلابد أن نصب عليه، والدستورية معناها الوفدية، وما دامت هناك انتخابات حرة فمعناها دستور ٢٣ ومعناها الوفد..

ومهما تناقش فلا فائدة، لأن الحكم هنا للقالب، وما دام هذا القالب موجودًا فلابد أن تدخل فيه مهما كان ضيقًا أو باليًا فلابد أن ننحشر فيه، وإلا فنكون قد خالفنا الأصول وحكمنا بشرع خارج المعقول والمنقول..

والمتخصصون فى علم الإنسان أو الانثرولوبوجية أولئك الذين يدرسون الإنسان وتطوره، وتاريخه، يقولون إن الطفل من ساعة أن يولد يبدأ فى الدخول فى القالب الاجتماعى والحضارى لقومه ومجتمعه، ولكنه بسبب طفولته وقصور إدراكه لا يخضع لقوالب الجماعة حتى يبدأ فى الإدراك، والفهم الواعى لما حوله فى سن الخامسة، ولهذا يكون الإنسان فى الطفولة حرًّا طليقًا غير مقيد بتقاليد الجماعة حتى هذه السن، وبعد ذلك، وحتى سن العاشرة تقريبا يدخل شيئًا فشيئًا فى قالب جماعته ويحصل كل ثقافة قومه، فيفكر كما يفكرون ويلبس كما يلبسون ويتصرف كما يتصرفون، ويستوعب شيئا فشيئا كل المعلومات والمعارف العامة التى يعيش عليها أهله، ولكنه حتى هذه السن يظل حرًّا طليقًا لطيفًا يتصرف

على سجيته ولأنه يتصرف على سجيته فإن ذكاءه ينمو نموًا سريعًا حرًا، ويلاحظ أن الإنسان المصرى يكون على طبيعته فى أحسن صوره حتى دون العاشرة، وهذا هو السر فى أن الأولاد المصريين يكونون فى أعلى درجـات ذكائهم وقـدرتهم على الابتكـار واللعب وحب المغـامـرة حتى العاشرة..

وفى المجتمعات المتقدمة التى تفهم ما هى التربية وتعرف قدر الإنسان، وتجتهد فى المحافظة على شخصية الإنسان وشعوره بالحرية وقدرته على الابتكار وإقدامه على المغامرة يقولون لك: حذار أن تحاول فى سنوات التربية والتعليم أن تضغط على الصبى أو الصبية وتقسرهما على الدخول فى القالب، وقد قمت بالتدريس فى مدرسة ابتدائية سويسرية لمدة سنتين بعد حصولى على الدكتوراه، وكانت القاعدة الأساسية فى التعليم فى تلك المرحلة هناك: حذار أن تتدخل فى شخصية الصبى أو الصبية، التربية تكون بالقدوة، وعليك أن تتصرف أمام الولد التصـرف السليم، ودعه يتبعك دون أن تدفعه، مثال ذلك: لاتحتد على الصبى ولا ترفع صوتك فى مخاطبة الأولاد وتكلم دائمًا فى هدوء وضبط نفس وصوت هادىء، إذا كنت غاضبًا فلا تنهر الولد أبدًا، وإذا وجدت أنه يميل إلى التمـرد والعصيان والخروج عن الخط فقل لناظر المدرسة، فقد يكون ذلك لأسباب خارجة عن طبيعته ولا يد له فيها، قد تكون ظروفه العائلية غير ملائمـة، قد يكون المثال الذى يراه أمامه فى البيت هو المسئول، وفى هذه الحالة لابد أن تتدخل المدرسة كلها، لأن المدرسة ومجلس المدرسـين يمثل المجتمع بصورة هى أصدق مما تمثله أنت.

والأولاد هناك مثل الأولاد هنا: نشاطهم واسـع وحيويتهم دافقـة،

وخيالهم فسيح، وسلطانهم على أنفسهم قليل، ولكنهم يرون البيت هادئًا ساكنًا نظيفًا مرتبًا، والطريق إلى المدرسة آمنًا مريحًا، والمدرسة جميلة فسيحة نظيفة حافلة بالخضرة، والمدرسون دائمًا فى صورة محترمة يتحدثون بصوت خفيض، وهم لا يعرفون الشجار أو الصخب أو الضجيج، والتلميذ الصغير يدخل فى القالب فى رفق ودون أن يشعر بثقل وطأة المجتمع عليه، فتظل شخصيته سليمة لا تتحطم، وتنمو معارفه وينمو معها طموحه، لأن المجتمع حافظ له على طموحه، وطوال السنتين لم أشعر بأن هناك امتحانات، إنما نحن نراقب الأولاد والبنات وندرس لهم وندرسهم فى نفس الوقت، ولكل ولد أو بنت صفحة فى دفترنا الخاص، وفى منتصف العام نجتمع ونتذاكر فى أمر أولادنا واحدًا واحدًا فتكون لدينا صورة عن كل منهم، وما نلاحظه من علامات الانحراف أو التخلف أو الكسل أو الإهمال، ونتصل بالأسرة ونخاطب الأب والأم ونعرض الصورة، والصورة تتحسن شيئًا فشيئًا حتى آخر العام، وفى نهاية المرحلة الابتدائية تكون المدرسة مع البيت قد عرفت ملكات الصبى واتجاهاته، وفى المرحلة الوسطى وهى تعادل الإعدادية والثانوية عندنا تتحدد الاتجاهات والملكات والخصائص، ودون غضب أو إصرار أو تحكم يواصل عدد قليل من الأولاد التعليم الثانوى ويدخلون الجامعة، أما الباقى فيؤدون فى السنة الخامسة من المرحلة المتوسطة امتحانًا يسمى النضوج المتوسط Mltt Lerereife ويتجهون بعد ذلك إلى التعليم المهنى التدريبى، أى فى الاتجاه الحرفى الذى يميلون إليه بكل أنواعه ومستوياته، والاتجاه إلى الحرفية لا يعنى تخصصًا أدنى لا على الصعيد الاجتماعى ولا المالى، وأعرف طالبين أخوين من أسرة متوسطة الحال، دخل واحد منهما مدرسة السكرتارية، ودرس كل الشئون الإدارية التنفيذية وأتقن الآلة الكاتبة

والاختزال، وأخوه دخل كلية الهندسة وأصبح مهندسًا، ومن سنوات قرأت أن الذى دخل مدرسة السكرتارية وصل إلى منصب عضو فى حكومة الكانتون أو المحافظة ثم أصبح رئيسا لحكومة كانتون زيوريخ، وأخوه أصبح فى نفس الوقت مهندسًا محترمًا، والاثنان دخلا فى القالب السويسرى الذى نعرفه جميعًا دون ضغط أو إرغام أو تحطيم شخصيته أو إضرار المجتمع.

قارن هذه الصورة بما كان لابد أن يحدث لصبيين أخوين عندنا لا يكاد الواحد منهما يصل إلى سن الإدراك، حتى تبدأ عملية القولبة، والتربية عندنا زجر وضرب وإهانة وإرغام على المذاكرة، والأب جلاد رحيم، والمدرس جلاد غير رحيم، والمجتمع ممثلاً فى الشارع والمواصلات والمدرسة جلاد رهيب، والثلاثة يحطمون المصرى الصغير ويطحنونه طحناً، ويصبح بودرة أو مسحوق إنسان أو إنسان بودرة، والبودرة توضع فى القالب، ويصب عليها الماء وتعجن وتتجمد فى الشكل الذى نريد، البيت قالب رهيب ليس فيه إلا الشجار والصراخ والفوضى والضرب، ثم يجيء التليفزيون فيقضى على البقية الباقية، وهو من هذه الناحية تحول إلى قالب رهيب، الطفل الصغير يرى المسلسل ويفهم منه أن الحياة تتكون من قوالب أو مراحل يلى بعضها بعضًا، فهو بعد أن يتحول إلى بودرة يدخل فى قوالب الابتدائى، ثم الاعدادى، ثم الثانوى، ثم الجامعة، وكل الأولاد لابد أن يدخلوا نفس القوالب، والمسكين الذى لا يريد أن يدخل فى قالب المدرسة الثانوية أو قالب الجامعة ولد خايب لا أمل فيه وهو شرير الرواية أى عدو المجتمع، وربما كان فى صميمها فى مستوى خيرة المواطنين. وأميل زولا وبرنارد شو وبيرم التونسى كانوا جميعًا أولادا مش نافعين، وسواقط امتحانات، وبعد الليسانس أوالدبلوم أوالبكالوريوس

تدخل فى قالب الماجستير ثم الدكتوراه، كل الأولاد لابد أن يحصلوا على الماجستير والدكتوراه، حتى الـرقص والتمريض وأعمـال الفنادق لهـا ماجستير ودكتوراه، وبعد الدكتوراه لابد من الزواج السريع وبعد ذلك لابد من الشقة وقبلها لابد من الوظيفة، ووسائل الإعلام تقول إن كل طفل يولد على أرض مصر له مكان فى الماجستير والدكتوراه، ولابد أن يتزوج بمجرد التخرج، والدولة تلزم نفسها بأن توجد له سكنا، والترقية حق لكل موظف لأنها قـالب لابد أن يـدخله الإنسان، والعـلاوة تمنح للمجتهد والكسلان والذكى والأقل ذكاء، ما دام له فم يأكل فلابد من العلاوة والترقية، ودرجة مدير عام لم يعد لها أى صلة بالإدارة، لأنها مسألة أكل عيش، وهناك ممثلون فى المسارح الهزلية حصلوا على درجة مدير عام. بل وكيل وزارة، لأن وكالة الوزارة قالب لابد من الدخول، فيه والحياة كلها قوالب من سن السادسة إلى الوفاة، حياتك رحلة بين قوالب تخرج من قالب وتدخل فى قالب، والذى يرفض الدخول فى القالب ويشكو من الحذاء الضيق مواطن خائب غير صالح وخارج على النظام وأحيانا كافر زنديق.

جامعة القاهرة والخروج
من عصر تكية السلطان

فى القسم الأول من هـذا المقال تـرى كيف أن جامعـة القـاهـرة استطاعت قبل أن تدخل فى عصر الثلوج وتخريج الطلاب بالجملة كأنهم أرغفة تخرج من مخبز آلى، استطاعت أن تقيم صرح الحضارة المصرية الراهنة بكل أعلامه.

وفى قسمه الثانى ترى كيف تستطيع جامعة القاهرة الخروج من عصر الثلوج والتدهور، وإيقاف كارثة القبول بالجملة والتخريج بالجملة، ومنح الدرجات العلمية بعد مناقشات صورية، والبخل الشديد على كل أدوات العلم: المكتبات والمعامل، ومعاهد التخصص، وتعيين المعيدين بخطابات التكليف، وترقيتهم بعد ذلك على أساس المجاملة وأكل العيش، والنظر إلى الجامعة على أنها تكية سلطانية يحصل الدراويش التنابلة على كل شىء فيها ببلاش، وأرخص شىء فيها هو العلم نفسه.

جامعة القاهرة جديرة بكل ذرة من ذرات تاج الماس الذى يضعونه على مفرقها هذه الأيام.

فهذه السيدة الجليلة - التى تبدو لى دائما كأنها تمثال للحرية أقمناه

مكان منارة الإسكندرية على شاطىء البحر المتوسط - هى عميدة الجامعات الحديثة فى عالم العرب كله، وقد قامت خلال هذا العمر القصير بما تستحق عليه أكثر من التقدير والاحتفال، وهى خلال الثلاثين سنة الأخيرة من عمرها تشق طريقها فى عسر وعناء، كأنها سفينة تفتح الطريق فى بحر متجمد شاسع، فقد أثقلوها بالأعباء وكبلوها بالأغلال، وحملوها فوق ما تطيق، حتى وقفت مكانها وسط الجليد، ولكنها مازالت تحاول السير بالرمق الباقى فى كيانها، على أمل أن تشرق الشمس ويذوب الجليد ويصفو الماء، وتمضى فى طريقها ويعود إليها إشراق الوجه وربيع الحياة..

* * *

ونحن الذين دخلنا تلك الجامعة وهى بعد صبية تملأ الدنيا ببشرها وحيويتها نذكر أيام كنا شبانًا تجمعوا من نواحى مصر كلها وعالم العرب كله، كنا نتجمع للسمر وتبادل الأمانى على السلالم الرخامية بكلية الآداب، وأمامنا فى الناحية الأخرى يتجمع شباب كلية الحقوق، وكل منهم يرشح نفسه لرياسة وزارة أو وزارة إذا لم تسعف الأقدار.

ومازلت أذكر أجيالنا التى سعت إلى تلك الجامعة فى ربيع العمر وإشراق الزمان، تلتمس العلم والفكر والمستقبل لنفسها وبلادها. كانت القاهرة إذ ذاك - أوائل الثلاثينات - جميلة وكل مافيها جديد، كانت كليتنا - كلية الآداب - تواجه شقيقتها كلية الحقوق وكأنها حسناء تنظر فى مرآة، كانت المبانى جديدة وكذلك كانت الأشجار والخضرة والعلم، حتى شيوخ العلم إذ ذاك كانوا شبابا، فهذا هو لطفى السيد مدير الجامعة شيخا كبيرًا يصعد سلم الإدارة بخطواته المتئدة وبذلته السوداء وقامته

النحيلة يزينها الطربوش، إنه يتحدث إلى على إبراهيم عبقرى الجراحة فى عصره وعميد الطب ومنشىء قصر العينى الجديد، لقد رأيته مرة يمر فى أحد ممرات هذا المستشفى، ويرى بقعة على الحائط فيخرج منديل صدره ويمضى ليزيلها، مازلت أراهما معًا على سلم الجامعة شيخين فى شرخ الشباب يلاحقهما مصطفى مشرفة عبقرى الرياضيات وعميد كلية العلوم، ومحمد كامل مرسى وعبد الرزاق السنهورى، كل هؤلاء كانوا إذ ذاك شيوخًا أو كهولاً، وكلهم كانوا يبدون لنا شبابًا بالعلم والأمل والإيمان فى مستقبل مصر وطنهم العظيم، وطه حسين كان أيامها كهلاً فى أربعيناته، ولكنه كان شبابًا كله، ووجهه كان مليئًا وشاربه الأسود يملأ ما أبقت النظارة السوداء من وجهه، وأما صوته فكان يملأ الدنيا بنغمه الرخيم وموسيقاه التى تضاهى فى حلاوتها صوت محمد عبد الوهاب. وكان هو الآخر إذ ذاك شابًا. وكان طه حسين يبدو لنا إذ ذاك عجيبة وطرفة وعبقرية شابة تمشى على قدمين، وتشق طريقها بين صفوفنا ونحن متجمعون على سلم كليتنا الرخامى الأبيض، ومصطفى عبد الرازق يهبط من سيارته وقورًا جليلاً، ويسير هادئ الخطو نحو كليته، وكل ما يبدو للعين منه يشرح الصدر: جبته البنية الصافية، وقفطانه الفضفاض وحزامه الحريرى الأنيق، وعمامته البديعة. وهو يخرج منديلاً يمسح به وجهه فيتهادى إلينا أريج عطر هادئ لطيف، ويبدو لنا كأنه الشيخ الرئيس أبو على بن سينا عاد إلى الحياة وعاد معه «الشفا» إلى النفوس، وبعد قليل يقبل منصور فهمى بوجهه الأشقر الذى كان يصور لى - لا أدرى لماذا - السلطان المملوكى المنصور سيف الدين قلاوون كما يصفه أبو المحاسن أمير مؤرخى مصر الإسلامية، ها هو ذا يصعد السلم بقامته المديدة وطربوشه الأحمر الكبير، وشاربه الأشقر وهو يمسك بعصاه من

قدمها ويجر رأسها المعقوف على الأرض. ولا بأس عليه فى ذلك، فهو فيلسوف يعيش فى عالم هنرى برجسون ودور كهايم، والدكتور أحمد زكى بحر العلوم والآداب يدك الأرض دكا بخطواته السريعة وقامته المديدة المنسرحة، ومحمد عوض محمد الجغرافى الأديب الشاعر، كان يعدّ شابا يلعب التنس ويخرج من الملعب بقامته الطويلة وهالة الشعر الأسود تاج على رأسه ونظارته الكبيرة السميكة التى يخيل إليك أنه ولد بها، فهى جزء من ملامحه، وهو يدخل سيارته ومعه تلميذه النجيب سليمان حزين الذى كان يمثل إذ ذاك شباب الجيل الجديد من أهل الجغرافية والآداب، ولأمر ما كانت أجيال أعلام العلم الجغرافى إذ ذاك كتابًا وشعراء، فبعد محمد عوض وسليمان حزين يجىء تلميذهما محمد محمود الصياد وكان جغرافيا أديبًا شاعرًا، وعز الدين فريد وكان جغرافيا موسيقيا، ثم صبحى عبد الحكيم الجغرافى الخرائطى الديموجرافى الخطيب البرلمانى المتدفق.

كانت أيامًا جميلة كلها علم وشعر وأدب وأمل، فهذا شفيق غربال عميد مؤرخى عصره وصاحب العبارات الجميلة المحكمة، كان مدرسة وحده بشخصه وعلمه وسعة اطلاعه، ها هو ذا يسير على مهل ويتحدث مع اثنين من الأساتذة الأجانب فى قسم التاريخ: بول جراندور البلجيكى أستاذ التاريخ القديم، وبيير جوجيه أستاذ تاريخ مصر البطلمية.

ومن بعيد يهل أمين الخولى، والذكاء يطفر من عينيه، وهو شاب يعد بالآمال التى تجيش فى صدره ويخب فى جبته المقفلة عند رقبته، أما أحمد أمين فيسير فى بذلته الفضفاضة وطربوشه المائل إلى الوراء، وهيبته - رغم البذلة - تجعله يبدو لك كأنه القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى، وإبراهيم بيومى مدكور الشاب كان حديث العودة من أوروبا،

وكان يبدو لنا كأنه مصطفى عبد الرازق آخر.

أساتذة وأعلام ورايات فكر وبشريات آمال، كانوا فى تلك السنين يتصدرون ركب العلم الحديث فى مصر وعالم العرب كله. وكنا ونحن ننظر إليهم نعد أنفسنا لنأخذ أماكننا فى ركب النور.

* * *

وعند سلم كلية الآداب الرخامى العريض لم تكن هناك إذ ذاك إلا سيارتان أو ثلاثة، كلها صغيرة فى حجم علب الكبريت، تتجلى وسطها أصغر سيارة عرفتها فى حياتى: سيارة الباليلا التى كان يملكها ويختال بها علينا صاحبها وزميلنا إبراهيم عبده الذى أصبح فيما بعد من أعلام الفكر والصحافة والأدب والنشر، ولكنه كان إذ ذاك شابًا لطيفًا دقيق الحجم حاضر النكتة سريع النادرة، يضاهيه فى ذلك صديقنا وزميلنا فى كفاح القلم صلاح ذهنى طيب الله ثراه، وكان صاحب دعابة حلوة يطلق النكتة فيتناقلها أهل الأدب جميعًا، حتى تصل إلى صديقنا الشاعر الرقيق إبراهيم ناجى فى عيادته فى شبرا.

على سلم الكلية كنا نتجمع لتأمل تلك الأنجم الزهر التى كانت تملأ حياة العرب كلها علمًا ونورًا، وكل منا يحلم بأن يسعده الحظ فى قابل حياته بأن يكون خليفة واحد من هؤلاء فى ميدانه ومكانته، وكنا جميعا نشعر شعورًا صادقًا بأن مصر التى أنشأت لنا هذه الجامعة تنتظر منا الكثير، وأن علينا أن نكون جديرين ببلدنا وجامعتنا: فهذا نجيب محفوظ طالب الفلسفة وابتسامته تشرق على وجهه دائمًا، وهو صاحب النكتة الحاضرة والضحكة المدوية، ولويس عوض بوجهه الجاد يتحدث على عهده فى مسائل من الأدب كانت تبدو لنا إذ ذاك عويصة جدا تتخطى

فهمنا. ورشاد رشدى وتحت إبطه ثلاثة كتب أو أربعة وهو يحدثنا عن توماس هاردى وابتسامته تشرق فى وجهه وسيجارته تحرق أصابعه وشفتيه، وأمينة السعيد درة بنات الجامعة تمر بنا وتلقى التحية بوجهها الجميل المشرق بنور الأمل، وسهير القلماوي تلميذة طه حسين وابنته الروحية تقبل إلى درسها تشتد فى خطوها مثالاً للجد والرزانة، من بيتها إلى قاعة المحاضرات إلى البيت لا تحدث أحدًا منا ولا يجرؤ على الاقتراب منها أحد، فى حين أن أمينة السعيد فى كمال احتشامها ورفيع أدبها كانت تقود بنات جيلها، وتشق طريق المستقبل باسلة مقدامة، وإبراهيم زكى خورشيد يأخذ بذراع صاحبه ورفيق عمره عبد الحميد يونس، وكل منهما يحدثنا عن كتاب جديد قرأه ويزمع ترجمته، وعبدالحميد يونس بالذات تفوق علينا بكتاب الدراما الذى ترجمه عن آشلى ديوكس، وتوفيق الطويل بوجهه الأشقر ونظرة الجد فى عينيه، وكتب الفلسفة تحت ذراعه وهو دائمًا مسرع يطوى الأرض طيًّا، كان خطيب جيلنا، كنا نستمتع بالإصغاء إليه يتدفق بالكلام المختار فى مناظراته تدفقا، وسلامة موسى يسمعه فى مناظرة فى نادى الشبان المسيحيين فى القاهرة ويقول: ياله من خطيب!

وشوقى ضيف يسير دائمًا متمهلاً على عهده، إنه مؤرخ الأدب فى جيلنا، والأستاذ أحمد الشايب عليه رحمة الله يقول: سترون من شوقى إن شاء الله عجبًا، وأبو ريدة ذو الذاكرة الواعية كأنها آلة تسجيل صوت وصورة لا يفوتها شيء، يقبع دائمًا فى المكتبة يدرس الألمانية على يد الأستاذ السويسرى روبرت ران، كانوا يطالبوننا بالإنجليزية والفرنسية فيأبى بعضنا إلا أن يضيف الألمانية، وأستاذ اللاتينية يكف عن اختبارنا فى الدرس الماضى، لأننا كنا فى العادة نحفظ الدرس التالى قبل أن يدرسه

لنا، كنا نلتهم الغد قبل أن يأتى تعجلاً إلى المستقبل، والأستاذ هنرى بير أستاذ الأدب الفرنسى فى جامعة القاهرة أصبح فيها بعد رئيسا لقسم اللغة الفرنسية فى جامعة برينستود، يلقى محاضرات فى الأدب الفرنسى فى موسم الجمعية الجغرافية، ويجد القاعة غاصة بنا إلى آخر مقعد، فيقول لطه حسين: أرجو أن تقول لطلابك أن يتركوا بعض المقاعد لأصدقائى الفرنسيين، وطه حسين يقول له مداعبا: هذا ذنبك وأنت مسئول، أنت اجتذبتهم فطاروا إليك.

ونفرغ من مرحلة الليسانس، ونستمر فى الدراسات العليا، نرى فى ذهابنا ومجيئنا أجيالاً جديدة من الشباب تفوقنا حماسة للعلم ونهماً إلى المعرفة، لاحقنا: جيل عبدالرحمن بدوى وعبدالعزيز الأهوانى ورشدى صالح وعبدالرحمن الشرقاوى ومحمد محمود الصياد، ثم جيل أنيس منصور وموسى صبرى ونعمان عاشور، وجيل يوسف إدريس الفنان الثائر ومصطفى محمود المؤمن الثائر، وثروت أباظة الحقوقى الأديب الذى كان يحلم بالسياسة فيسوقه القدر إلى ميدانه الحقيقى وهو الأدب، ومحمد المعلم ومحمود الشنيطى اللذين برعا فى ميدان النشر، وأجيال أخرى قدر لها أن تدخل الجامعة وتتخرج فيها قبل أن يحاصر الثلج السفينة، فتتراخى فى سيرها وتتعثر.

والجامعة على أيامنا لم يكن لها سور، لأنها كانت جزءًا من المجتمع. وعندما بنوا السور حولها غضبنا وتظاهرنا، وواحد منا كتب مقالاً يقول فيه: لا تقتلوا الجامعة بالأسوار، ولكنهم خنقوها بالأسوار ثم كبلوها فى الخمسينات بالأغلال، وجامعة القاهرة التى كانت فى أواخر العهد الماضى الذى صنفوه فى مكتبة التاريخ القومى تحت اسم العهد البائد، كانت منبر

الوطنية ومنار الحرية فى العصر البائد بالذات، وساحتها لم تكن تخلو من الخطباء قط، هذه الجامعة سكنت وخمدت أنفاسها واستكانت، ويمر بها ذات يوم قطب عظيم من أقطاب العصر غير البائد، ويرى خطيبًا يخطب وشبابًا يهتف: تحيا مصر تحيا الحرية فيهز رأسه ويقلب كفيه ويقول: أما كنا قد أنسيناهم لعبة تحيا مصر هذه؟ ويهمس فى أذنيه هامس: هذه حركة عيال لا تلبث أن تخمد، إنها انتفاضة نفر قليل من العابثين، ويكون الرد: دى انتفاضة الحرامية. وذهبت مثلاً.

ولو كان بيدى دليل للخريجين لرأينا أن كل كليات جامعة القاهرة إذ ذاك كانت تفيض بعباقرة الشباب فى كل ميدان، والأسماء لا تحضرنى ولكنى أرى فى صورة مصر الحضارية آثار محمود يونس ومشهور أحمد مشهور وعثمان أحمد عثمان وعبد المنعم القيسونى وعزيز صدقى ومصطفى خليل، جامعة القاهرة وحدها أنشأت هذه الأجيال كلها من صناع حضارة مصر الراهنة أيام كانت جامعة حقة، جامعة مستقلة الفكر والروح، وأرجو ألا أكون فى كلامى هذا ما يثير إخوانى فى جامعتى الإسكندرية وعين شمس، فجامعة القاهرة أنشأت هذه وتلك، ومعظم الذين أنشئوا الجامعات الأخرى أبناء هذه الجامعة المباركة.

ذكريات مرت بخاطرى، وأنباء الاحتفال بمرور خمس وسبعين سنة تترامى إلى أذنى، وأجلس ذات يوم قريب بعد الظهر فى فصل، وأمامى طلبة الدراسات العليا، والحجرة كئيبة مظلمة، معظم زجاج النوافذ تكسر وأصبح منافذ للريح، بقية الزجاج مازالت عليه بقايا حزينة من طلاء اللون الأزرق الذى وضعوه أثناء الحرب، وعشر سنوات مضت على آخر حرب دخلناها سنة ١٩٧٣، ومن ذلك الحين لم يكلفوا أنفسهم عناء تنظيف

النوافذ. والحجرة فيها أربع لمبات فلوريسنت، ثلاث منها توفيت والرابعة تحتضر. لا يهم. عندما تموت اللمبة الرابعة ينتقلون إلى قاعة أخرى، وتموت هذه القاعة. لا نقود عندنا لشراء لمبات، ولكن عندهم نقود لرواتب موظفين إداريين تملأ مكاتبهم ست غرف. وقبل بضع سنوات قلائل، كنت أحاضر فى قاعة محاضرات بقسم التاريخ والطلاب أمامى فى حالة يرثى لها. كثير من المقاعد الخشبية تحطمت ومعظم القمطرات التى يكتب عليها الطلاب تشققت وتحطمت، لا نقود لهذه أيضا. فى يدى قطعة من الطباشير لاتكتب إننى أكتب الشىء مرة بعد أخرى ولاأرى شيئا، لا الطباشير يكتب ولاالسبورة تقبل، والفراش يقول: ماذا نعمل يا أستاذ. مفيش فلوس. حتى الطلبة لم يعودوا بحاجة إلى سبورة أو طباشير أو حتى إلى أستاذ. عندهم مذكرة الدكتور، أو المينى - أستاذ بتعبير أصح، فليس هناك أستاذ يطبع مذكرة من أربعة ملازم فى مطبعة رزق الله فى حارة معوض الله عند مقلب الزبالة فى الجيزة ويبيعها بسعر الملزمة جنيه، والطلبة يدفعون الجنيهات الأربعة ولكنهم لم يتسلموا إلاملزمتين. وهذا أحسن وحتى لو أخذوا ملزمة واحدة ففيها الامتياز إن شاء الله فإن الامتحان لن يخرج عنها. وألسنة السوء تروج الإشاعات عن جامعتى وأنا أرفضها لا أظن أبدًا أن أستاذًا هنا فى تلك الجامعة يفعل ذلك.

ولا أظن قط أن أستاذًا يتقاضى من الناشر رزق الله ٥٥ فى المائة من سعر البيع. فهذا ربا لا حقوق نشر. إنما يفعل هذا مينى أستاذ أو أستاذ تاكسى أو أستاذ شنطة، وجامعة القاهرة وكل جامعاتنا لاتعرف هذه الأصناف من الأساتذة صناعة كوريا الوسطى، وحاشا لله أن تكون

جامعاتنا قد عرفت هذا النوع من الأسانيد أو القزاقيز. فى الماضى كنا نشكو من تزويغ الطلاب أما اليوم فإن أعضاء هيئة التدريس هم الذين يزوغون.

* * *

ترى: ما كان ضرهم لو أنهم حجزوا من الألوف التى أنفقوها فى صناعة التاج الماسى بضعة آلاف لإصلاح الزجاج المحطم والكراسى العرجاء والقمطرات المكسورة، ودورات المياه التى لايجرؤ على الدخول فيها أسد، والسلالم المحطمة وإصلاح الممرات بين مبانى الجامعة، وما إلى هذا ممايجعل الجامعة فى عيدها الماسى أشبه بحوش فى قرافة باب الوزير، أم أن هذه الجامعة التى تنفق فى عيدها الألوف لاتستحق منديلا يمسح عن وجهها دموع الحزن كأنها يتيم خلفه أبوه على قارعة الطريق؟

ولكن لا بأس يا جامعتى الجميلة، فلست وحدك المظلومة بين مفاخر هذا الوطن العزيز، فكل ما هو عظيم وجميل فى بلادنا يعانى، وهضبة الأهرام كلها بما فيها من أمجاد كانوا على وشك أن يبيعوها، ومتحف الفن المصرى القديم فى القاهرة أصلحوه وأصبح تحفة، ولكنهم حاصروه بالسيارات وأعمال الحفر، والسياحة كلها أصبحت احتكارا لعصابات سائقى التاكسى.

كنت أتمنى أن تكون جامعتنا فى صورة أجمل من صورتها الحالية بكثير فى عيدها الماسى، وقد كتبت الكثير لكن يبدو أن أحدًا فى الجامعة لايقرأ ولا يكتب، أو أنهم يقرأونه ثم يؤشرون عليه : علم ويحفظ.

أما أنا فلا أيأس، وسأظل أكتب وأذكر، وأتعزى هنا بلقمان الحكيم الذى عاش فيما يقال سبعمائة سنة لم يقصر فى عام منها عن دعوة قومه

إلى الهدى دون أن يستمعوا له، فلما كانت السنة التاسعة والتسعون بعد السبعمائة ناداه واحد منهم وقال: يالقمان: ألا تتعب من الدعاء؟ ويقول لقمان: حتى تسمعوا وتطيعوا، فيقول الرجل: يالقمان، لقد مات قومى جميعًا ولم يبق إلا أنا، قال لقمان: إذن فعد أنت إلى الحق، وتعال نصل معًا ونطلب لقومك الرحمة، وأقبل الرجل فنظر إليه لقمان فهاله ما رأى: رجل كله عظم وشعر، وليس فيه من دلائل الحياة إلا صوته، فقال له لقمان: - وقد أشفق عليه - استرح أيها الشيخ فما أراك تستطيع القيام والدعاء، ما اسمك أيها الشيخ؟ قال اسمى لبد، إذن فاجلس يا لبد وأنا أدعو لك ولقومك، ونظر إلى الرجل فإذا به قد مات فقالوا:

* أخنى عليه الذى أخنى على لبد *

وسمع لقمان صوتًا يهتف به: يباركك رب القدرة يالقمان ويدخلك الجنة، فقد هديت فى سبعمائة سنة نفسًا واحدة لحظة واحدة!

ولكن أملى فى الله عظيم، ومازلت أرجو إخوانى القائمين بأمر جامعة القاهرة أن يعيدوا النظر، فهم بلا شك يحسون معى متاعب جامعتنا، ويودون لو أعانها الله على الخلاص من متاعبها والدخول فى عصر جديد إن شاء الله، حتى إذا آن أوان الاحتفال بالعيد المئوى كانت الجامعة على أحسن ما نحب ونشتهى.

فى كل بلد من بلاد الدنيا جامعة أو اثنتان أو ثلاث. تعتبر الجامعات الأمهات الرائدات، ولهذه الجامعات وضع خاص، ونظم تميزها عن غيرها دون أن يكون فى ذلك مساس بأى من بقية الجامعات.

ففى فرنسا يعتبرون جامعة باريس، الجامعة الأم أو عميدة الجامعات، فأساتذتها هم خير أساتذة الجامعات الفرنسية كلها، وعندما تخلو وظيفة

أستاذ فى إحدى كليات جامعة باريس، فإن مجلس الجامعة يختار من يقع عليه اختياره من أساتذة الجامعات الأخرى فى نفس التخصص، ويعتبر هذا الاختيار تكريمًا لذلك الأستاذ، وهو يقبل فى الغالب حتى يختم عمله الجامعى أستاذًا فى أعظم جامعات بلاده، وقد تحول ظروفه دون القبول فيكتفى بشرف التكريم ويظل فى جامعته، ويعرض المنصب على أستاذ آخر.

والمعاهد العالية وأقسام الدراسات العليا فى جامعة باريس، هى أرفع ما فى فرنسا مكانة وقدرًا، ولا يقبل الطلاب فيها إلا بامتحان مسابقة، ولا يعتبر الالتحاق بأحد هذه المعاهد حقا ثابتا للطالب، إنما هو فى اختبار دائم، ومن خريجى تلك المعاهد وأقسام الدراسات العليا بها تحصل كليات الجامعة على من تشاء من أعضاء هيئة التدريس عن طريق امتحان مسابقة أيضا، ولكن دخول امتحانات المسابقة لا يقتصر على خريجى جامعة باريس ومعاهدها، وأحيانًا لا يقتصر على الفرنسيين، لأن جامعة باريس تريد الحصول على أحسن الكفايات دائما، وهناك تخصصات تحصل عليها الجامعة من إنجلترا أو ألمانيا أو أى بلد آخر، وجامعة باريس تشبه فى هذا كبار الجامعات الأمريكية مثل هارفارد، وبرينستون وييل وبيركلى، ففى تلك الجامعات يفضلون أستاذًا ألمانيا للغة الألمانية وآدابها، وأساتذة فرنسيين للغة الفرنسية وآدابها، وبعض التخصصات الكبرى يحتلها الآن أساتذة من جنسيات شتى، وكلهم يحصلون فيها بعد على الجنسية الأمريكية إذا شاءوا، وأمريكا تكسب خبراتهم وتغنى بعلمهم.

وذلك الوضع يقتضى أيضًا أن تدقق الجامعات الأمهات فى اختيار طلابها، فإن أبواب جامعة هارفارد مثلا لا تفتح لأى طالب، بل هم

يختارون طلابهم بعناية تامة، والطلاب إذا كانوا موهوبين كان تعليمهم فى مقابل رسوم زهيدة، وقد لا تكون هناك رسوم أصلا، أما من يشاء دخول هذه الجامعات ممن لا ينجحون فى اختبارات القبول، فإن عددهم قليل جدًا، وهم يدفعون رسومًا جامعية عالية، لأن الجامعات فى حاجة إلى أموال، ومع أن جامعات فرنسا وإنجلترا وأمريكا الكبرى تحصل على معاونات من الحكومة تبلغ أضعاف ما يحصل عليه غيرها من الجامعات. فإن لها إلى جانب ذلك أوقافًا وهبات ضخمة جدًا، وهى تحصل على أموال عظيمة من شركات صناعية كبرى فى مقابل خدمات علمية تقوم بها هذه المصانع. وهذه الأموال كلها لا تكفي، لأن تكاليف الجامعات فى أيامنا هذه عالية جدًا ومعاهدها ومعاملها ومستشفياتها تنفق الملايين، ولهذا فإن أحدًا من الطلاب لا يستطيع الصمود على الدراسة أو العمل فيها إلا إذا كان كفئًا حقًا، فالحصول على إمكانية الالتحاق بأحد معاهد العلوم والطب والهندسة فى هذه الجامعات عسير بل نادر، لأن وظيفة هذه الجامعات هى المحافظة على مستوى العلم والبحث فى البلاد، فهى معاهد ريادة وطلائع قبل أن تكون معاهد تعليم، والجامعات الأخرى لا تجد فى ذلك أى غضاضة، وهل تظن مثلاً أن جامعة درهام أو برمنجهام أو أدنبرة لا تعترف لجامعة كيمبردج بالصدارة؟ وهل هناك جامعى إنجليزى واحد لا يفخر بجامعة كيمبردج أو أوكسفورد أيا كانت جامعته؟.

* * *

تلك هى الفكرة، وأظن أنها مفهومة، وأرجو أن تكون مقبولة.

إن جامعة القاهرة تعانى أكثر من غيرها من ضخامة أعداد طلابها، وليس هذا عدلاً، فهذه جامعة طليعة، ولابد أن تعامل على هذا الأساس،

وفى بلادنا الآن - والحمد لله - إحدى عشرة جامعة أخرى تستطيع أن تستوعب أى عدد من الطلاب.

فلنجلس الآن ولنفكر فى هدوء لتكون جامعة القاهرة جامعة أمًا أو جامعة طليعة، ولنعترف لها بذلك، ولنعد صياغة نظمها على هذا الأساس، ولنبدأ التنفيذ برسم الخطة لبناء هيئة التدريس فى جامعة القاهرة بناء جديدًا ونقطة البداية هنا هى الدراسات العليا، فإن نظامها الحالى لا يحقق للجامعة أى تقدم. وبين طلابنا شباب موهوب حقا، ولكننا نضيعه فى الزحام، ونظام تعيين المعيدين بخطابات التكليف نظام قاتل للعلم.

لنعلن من الآن عن مستوى المعيد الذى نريده ولنشترط فيه مانشاء فسنجد دائما بين شبابنا من يستوفى الشروط أو يجتهد فى استيفائها، ومن بين هؤلاء المعيدين الممتازين نختار البعثات بأدق معايير الاختيار والامتحان، لكى نحصل بعد سنوات قليلة على شباب علمى جديد نبنى عليه جامعة القاهرة الجديدة.

ومن الآن ينبغى أن يقتصر القبول فى جامعة القاهرة على الممتازين فعلاً عن طريق امتحان مسابقة غاية فى الدقة، وفى نهاية السنة الأولى فى كل كلية، وستكون سنة إعدادية - نعيد الاختيار والتصفية، فإن طالبًا واحدًا ممتازًا حقًا أبرك علينا من خمسين، ولقمان غفر الله له ورضى عنه لأنه هدى نفسًا واحدة لحظة واحدة.

الدماغ والقلة

الحديث يجرى بينى وعم سعفان، وهو بواب بيت لى فيه شقة فى حى المنيل، وأنا أعنى بهذا السكن لأن الجانب الأكبر من كتبى فيه، وهنا كنت أحب أن أعيش، ولكن الناس جعلوا الحياة هناك عذابًا لأى إنسان يريد أن يعيش ويعمل ويستريح، هنا لا حياة لك ولا عمل ولا راحة وإنما هو العذاب ولا شىء غيره، وتحت نافذتك صف من محلات تخريب السيارات كل منها يحمل اسما عجيبا: «دنيا الميكـانيكا» و «مـدينة الشـاكمان» و «الهندسة الالكترونية» من هذا كله لا يوجد شىء، وإنما دكاكين كأنها الجحور، كل ما فيها شحم وزيت وهباب ومصباح كهربائى تعيس ٥٠ شمعة هو مصدر النور الوحيد وعشرون - قل ثلاثين - غلامًا يدقدقون رأسك بالشواكيش من الصباح إلى المساء، هنا لا رحمة ولا إنسانية، وإنما هى الحرب ولا شىء سواها، وعم فرحات اختصاصى الكلاكس يجعلها لك جحيمًا، إن صوته هو نفسه أعلى كلاكس فى الدنيا، وزنه ٩٠ كيلو، وصوته زمارة إنذار، وهو يضحك ويسب صبيانه طوال النهار.

حول هذا العالم الحافل بالمنغصات تحت أذنى، نشأ عالم خدم وحشم لهؤلاء: عربات كباب وطعمية وقهوة وشاى وامرأة سمينة تبيـع الخبز،

وحولها من الأولاد نصف دستة، وأمامها على الرصيف الآخر زوجها إلى جانبه أكوام من البصل الأخضر والكرات، وهذا الرجل افتتح فرعا لبيع الفول النابت، وطشت غسيل ملقى فى نهر الشارع، حافل بالفول النابت المغطى بالماء، ونصفه تعطن لكن هذا لا يهم، هنا لا يرى الناس شيئا ولا يشمون: إنهم يأكلون، جيوبهم مفعمة بالمال، وأقل أوسطى فى هذه الورش الغلبانة يكسب فى اليوم - صافى بعد كل حاجة - خمسين جنيها، وأصغر غلام من أولئك الذين يسيرون فى أسمال بالية ويدقدقون دماغك طول اليوم يتقاضى فى اليوم ثلاثة جنيهات و «يهف» من العملاء جنهين فالمجموع خمسة وهى بمقياس الحكومة مرتب مدير عام..

وعم سعفان يقف أمامى إلى جانب دولاب كتب وضع فوقه قلة، ألف مرة قلت له إن القلل لا توضع فوق دواليب الكتب، وألف مرة يضع القلة فوق الدواليب ويقف أمامى ورأسه على مستوى القلة. وأقول له:

- فيه حاجة يا سعفان..
- لا يابيه. الحمد لله
- ونعم بالله يا عم سعفان، ولكنى أسألك عما يكون بعد حمد الله
- الحمد لله يا سعادة البيه.
- وألف حمد لله يا سعفان، ولكن هل جديد منذ كنت هنا من أسبوع.
- لا يا بيه.
- والسيدة التى تنظف الشقة ألم تأت أمس؟
- أيوه يا بيه ونظفت وعملنا لها شاى..
- ولماذا لم تقل لى ذلك؟
- حضرتك عارف يا بيه.

- ومن أين أعرف إذا لم تخبرنى أنت.
- لا يا بيه الست بسيمة أتت واشتغلت ونظفت والحمد لله.
- كانت وحدها فى الشقة؟
- لا يا بيه كان هنا الأستاذ أنور الذى يرتب الكتب.
- لِمَ لم تقل لى هذا؟
- سيادتك عارف يا بيه.. سيادتك عاوز حاجة؟

وبعد لحظة استدار وابتعد دماغه عن القلة فناديته وعاد:

- فيه خطابات؟
- لا يابيه.
- قصدى النور.. المياه..
- فكرتنى يا بيه بتاع النور عاوز ثلاثين جنيه.
- أين المطالبة
- مع أم عطيات يا بيه.

وتعجبت من أمر ذلك الرجل الذى يقول: ألا شىء هناك وينسى مطالبة شركة النور، وأنا أتطلع إلى دماغه وإلى جانبه القلة، فى لحظة ما خيل إلى أن القلة هى التى تتكلم وأننى لو سألتها لكان أحسن، على أى تقدير هى قلة فيها ماء والماء نعمة، ولكنك لاتدرى ما فى هذا الدماغ، إنه شىء بيضاوى ثابت بين كتفيه، شىء بلا ملامح، لأن هذا المسكين الواقف أمامى أنجب من العيال خمسة: ثلاث بنات وولدين، وامرأته أم عطيات راقدة تحت السلم تعانى أمراضا تحتاج إلى كل أطباء قصر العينى لعلاجها، من باب الاحتياط تزوج الرجل شابة جديدة لتخدمه هو والحرمة والأولاد، وهذه الشابة حبلى فى الثامن لأن أخانا سعفان لا يضيع

وقته ولا ينظر حوله أو فوقه أو تحته بل لا ينظر إلى شيء أو يرى شيئًا.

وعم سعفان يستدير ويمضى حاملاً القلة بين كتفيه ويمضى، وأنصرف إلى العمل ثم أذكر فاتورة النور فأمضى إلى الباب وأناديه وأطالبه بها..

- مش لاقييها يا بيه، نحن نبحث عنها..

وبعد نصف ساعة أتعجل المطالبة وبعد ساعة تأتينى مع أحد أولاده نسخة ممزقة متغضنة فى كل جانب.

وأرفع رأسى عن الكتب، وأنظر من النافذة إلى العالم الحافل الصاخب تحتى، الساعة الآن الثانية عشرة إلا ربعًا والصخب والدق والصياح وأصوات الكلاكس وصلت لذروتها، وضحكات عم فرحات وشتائمه تغطى على كل شيء، وصوت المؤذن يعلو داعيًا لصلاة الظهر ولا أحد يسمع، أو يستجيب، فهؤلاء الناس جميعًا يعيشون فى ظل الجامع ولكنهم لا يصلون بل لا يسمعون الأذان، أتوضأ وأبسط السجادة وَأُؤَدِّى فَرِيضَة الصَّلَاة..

وأعد لنفسى شيئًا من الشاى وأخرج شطيرة أتيت بها معى أتزود بها، لأننى سأعمل هنا إلى المساء، وتمضى بى الأفكار.

* * *

هؤلاء الناس جميعًا فى أى عالم يعيشون؟ عم سعفان، والأسطى فرحات، وأم عطيات، وبقية الأسطوات، والغلمان، وبائعى السموم من يكونون؟ هؤلاء أبناء وطنى وأنا أحبهم، وأحوالهم تعصر قلبى ولكن كيف أصل إليهم؟ ليس بينى وبينهم على الحقيقة خيط واحد محدود، إنهم يعرفوننى وأعرفهم، إذا تقابلنا تبادلنا التحية، وهذا كل ما هنالك، هم فى

عالمهم وأنا فى عالمى، ولا جسور، وظيفتى أن أعلم الناس ولكن لا سبيل لى إلى أبناء وطنى، هؤلاء ومثلهم ملايين لو أننى احتجت إلى خدمة من هؤلاء فهم لن يعاملونى أبدًا على أننى أخ، أو مواطن، بل مجرد إنسان يمكن أن يحصلوا منه على شيء من المال، ولكن يربط لى باشمهندس الشاكمان قطعة من الماسورة يطالبنى بعشرة جنيهات لأن مالى ومال كل مواطن آخر - فى نظره مسروق - إننى أحبهم لكنهم لا يعترفون بوجودى، إننى أفهمهم ولكنهم لا يفهموننى، وعندما قلت لهم مرة إن الفول النابت معطن، نظر بعضهم إلى بعض كأننى تكلمت بالصينية ومضوا يشترون، إن الجامع أمام بصرهم ولكنهم لا يرونه، والمؤذن للصلاة يدعوهم ولكنهم لا يسمعونه، ومن الجامع يسرقون الكهرباء والماء، والجزء الوحيد من المسجد الذى يعرفونه هو دورة المياه، وأنا والمؤذن وإمام الجامع وكل سكان البيت أشباح.

وأعود إلى عملى، إننى أترجم نصوصًا لاتينية من مجموعة «أسبانيا ساجرادا»، وأجمع مادة لبحث ألقيه بعد قليل فى مؤتمر فى أمالفى، وأقول لنفسى: أما كان أفيد لهذا البلد لو تركت اللاتينية والأبحاث وخاطبت هؤلاء؟ ولكننا يا سيدى لا نتكلم لغة مشتركة، كلنا مصريون نتكلم العربية ولكنها ليست نفس اللغة، ونفس الألفاظ لها عندى معان ولها عندهم معان أخرى، لو نطقت ألفاظا مثل: الوطن، الصالح العام، النظافة، الهدوء، تنظيم الأسرة، وما إليها، فهل لها عندى وعندهم نفس المدلولات، فى الأسبوع الماضى أتى إلى هنا رجل فى سيارة، ونزل وتجمع حوله نفر من أصحابه، علمت بعد ذلك أنه إنسان يفكر فى ترشيح نفسه عن هذا الحى لحزب من أحزاب المعارضة، الناس هنا تجمعوا حولهم ويسألونهم إن كانوا يريدون إصلاح سيارات، وعندما علموا أنهم أتوا

ليتكلموا فى السياسة تركوهم، بعد أسبوع قرأت فى صحيفة حزب هذا الرجل أن الحزب عقد هنا، وتحت نافذتى اجتماعًا شعبيًا حافلًا، وأن الجماهير التفت حول قيادات الحزب وأيدتهم وهتفت لهم، أنا نفسى كنت هنا ورأيت كل شيء من هذا الذى تقوله الجريدة، لم يحدث شيء وهذه الصورة المنشورة مع الخبر ليس بينها وبين شارعنا أى صلة، ولكن هذا هو ما تقوله الصحيفة وتلك هى دنيا السياسة.

إذن فها هنا عالم ثالث: عالم السياسة وأهلها، عالم المتنافسين على سيادتنا وحكمنا، فهذا الكذاب الذى وقف تحت نافذتى، زعم أنه عقد اجتماعًا سياسيًا، وأن الجماهير هتفت له وصفقت لخطابه المستفيض عن تردى الديمقراطية، رجل مدلس وكل ما تنشره صحيفته من هذا الطراز، إنهم يتحدثون لغة أخرى ويعيشون فى مصر أخرى. والقلل التى يحملونها على أكتافهم فيها ماء لايمكن أن يكون ماء النيل.

أنا خلف نافذتى معلم ولا أجد من أعلمه، وهنا تحت النافذة ناس فى حاجة إلى العلم ولكنهم لا يريدون أن يتعلموا. وهناك لا أدرى أين، رجال سياسة يزعمون أنهم حكام الغد، ولكنهم لا يجدون من يحكمونه.

وعلى الناحية الأخرى من الشارع.. وأنا أنتظر السيارة بعد الفراغ من العمل أقف إلى جانب عربة بطيخ، الرجل نائم ورأسه يميل، حتى يصبح هو الآخر بطيخة، من الممكن جدًّا أن يجيء رجل، ويتناول رأس هذا المسكين، يربت عليه بيده ليتأكد أنها «حمار وحلاوة» ويشتريها ويمضى! لا أظن أن الرجل سيحس، سيتحسس مكان رأسه فلا يجد شيئًا، لا يهم، سيأخذ بطيخة ويضعها بين كتفيه، وصدقنى أن البطيخة «ستشتغل دماغ» بالدماغ سيعيش. بالقلة سيعيش، بالبطيخة سيعيش، لأن المهم أن يكون هنا شيء مستدير، لأنه فى كل حالة لا يوجد داخل الشيء

المستدير شيء، والمخ الذى هنا معطن منذ سنوات طويلة، ولا أحد يدرى أنه مثل الساعات الحكومية كلها معطلة، أو لكل منها توقيت، لا يهم. فإن الناس لا ينظرون فى ساعات الميرى أبدًا ولا يعتمدون عليها فى التوقيت أو غير التوقيت..

وهذا يا سيدى عالم رابع يعيش معنا على أرض هذا الوطن، ولا جسور إنه عالم رجال الحكومة. إن لهم هم الآخرون لغتهم الخاصة بهم، إنهم مصريون يتكلمون العربية ولكننا لا نفهمهم ولا هم يفهموننا، هؤلاء يحملون فوق أكتافهم ساعات معطلة أو مضبوطة على توقيت خاص بها، نحن فى المغيب ولكن عقارب ساعاتهم تقول إنهم فى الفجر، هكذا تقول صحفهم: البلاد كلها فى فجر جديد، ولكن أين هذه الفجر؟ إنه فى ساعاتهم، وهى الأخرى أشياء مستديرة يحملونها بين الأكتاف..

عوالم شتى بعضها إلى جوار بعض، تملأ دنيانا: أدمغة وقلل وبطاطيخ وساعات ميادين وحوائط، اشتريت معطلة جاهزة فى المناقصات، ودقها أصحابنا فى أجسادهم أو جدرانهم وعاشوا بها ومنها وعليها.

* * *

ذلك أننا يا سيدى يتعطل فينا شيئان بعد المولد بقليل: الدماغ والقلب، لأننا نعنى بالأجساد وننسى الرؤوس، والحكومة نفسها تدعم الرغيف واللحم والأرز والزيت ولا شأن لها بالدماغ، وعندها حق، فلو أن أدمغتنا عملت كما ينبغى لما عرف رجال الحكومة كيف يكلموننا، سنتبين أن الساعات التى يحملونها فوق أكتافهم ويعيشون بها: إما معطلة وإما مختلة، وهنا تكون الكارثة، هكذا أحسن، وليعش كل منا بالكرة التى فوق كتفيه: أنا بدماغى، وهؤلاء العمال بالشواكيش التى يحطمون بها

دماغى، وعم سعفان بالقلة، وبائع البطيخ بالبطيخة، وسيادة الوكيل بالساعة المختلة التى اشتراها فى المناقصة، ودقها على جدار جسده وعاش بها، وأهى ماشية! على فين؟ لا يهم، أهى ماشية، وما هى تلك الماشية؟ لا يهم، فهذا عالم الأسئلة التى لا تجد جوابها أبدًا.

وعم سعفان لم يسأل نفسه أبدا من الذى سيربى العفاريت الخمسة؟ من الذى يتولى أمر الزوجة الشابة الجديدة، والأوسطى صاحب الهندسة الالكترونية لم يسأل نفسه أبدًا، ما هى الهندسة أو ما هى الالكترونية، هذه التى تزين دكانه، إنها كلمة كتبها خطاط وعلقها أعلى الدكان، لا يهم إن كانت لافتة أو قلة أو بطيخة أو ساعة معطلة، المهم أنها ماشية وبتجيب فلوس، والمعلم الباشمهندس الالكترونى يدخل جيبه فى اليوم خمسون جنيها صافية مشفية، ولكن الذى تأخذه امرأته كل صباح هو جنيه لا يزيد وكفاية، إنه اشترى للأسرة تليفزيون ملون ٢٦ بوصة، وماذا يريدون منى؟ أقطع نفسى؟ عندكم التليفزيون! كلوا تليفزيون واشربوا تليفزيون، عاوزين تنهبوا.

* * *

وهذا يا سيدى عالم خامس: عالم الراديو والتليفزيون وكل الإعلام، عالم يعيش بنفسه ولنفسه ومن الناس، الأخبار التى تسمعها وتراها فى نشرات الأخبار تقول لك إن كاسبار واينبرجر - مين ده؟ اجتمع فى رومانيا بنيكولاى شاوشيسكو الرئيس الذى كان هنا من أسابيع، وتدارسا أحوال الدنيا، وقالا: إنها تمام. وجورج بوش أنت تعرفه طبعا - قابل الرئيس دنج اكسياوينج فى بكين واتفقا على خراب بيت الروس - ليه -؟ والسيدة نانسى حرم الرئيس ريجان ألا تعرفها؟ اكتشفت فى

رأس زوجها (٧٣ سنة) أربع شعرات بيضاء، وهذا هو أمامك على الشاشة فى مؤتمر صحفى، يؤكد فيه أنه لا يصبغ شعره وهذا هو، الـدليل، ومن البيت الأبيض تنتقل الأخبار إلى أمريكا الوسطى، وهـذه صورة عن حـرب السلفادور - فـين دى؟ وأمـريكـا أرسلت الأسـطول وحـاملة طائرات - يعنى إيه؟ - وهذا هو لبنان - الحرب ما زالت دائرة هناك بين الكتائب والدروز والشيعة، وهل لا يوجد فى لبنان إلا كتائب الموارنة ودروز وليد جنبلاط وميليشيا شيعة أمل؟ ألا يوجد فى لبنان أهل سنة؟ لا... هؤلاء عليوهم ووضعوا العلب فى الجمعيات التعاونية - هكذا يقول الرئيس الأسد - وشامير يحاول تأليف وزارة وها هو ذا أمامك داخل مبنى مجلس الوزراء، وفى النهاية هذه هى الرياضة العالمية، وما كنرو فاز على رولان بطل فرنسا ٣-٢-٣ و٥-٤-٤ و٦-٥-٣ إزاى؟

اتفرج وأنت ساكت يا أخى، ألا تكف عن الأسئلة؟ ألا يكفيك أننا حققنا السيادة الإعلامية على كل تراب الوطن - يعنى إيه والله؟ وفى الختام نحييكم أيها السادة مع النشرة الجوية، وهذه تصاوير ورسوم جميلة، والحرارة زادت عن المعدل - يعنى إيه المعدل من فضلك؟ - لا يهم، فهذه لغة لن تفهمها أبدًا، إنها لغة مضبوطة على ساعة جامعة القاهرة، وكل شىء فى الجامعة معطل إلا الساعة - عجيبة؟

* * *

معقول؟ معقول أننا نعيش فى هذا البلد، خمسة عوالم كلهـا تتكلم العربية، ولكن أحدا منها لا يفهم الآخر؟ هذا معقول ونص كمان، بل هناك عوالم أخرى يتعيش معنا على أرض هذا الوطن ولا نفهمها، فنحن إلى هنا لم نتحدث عن عالم الفلاحين - حوالى ٣٠ مليونا لا هم يفهمون

لغتنا ولا نحن نفهم لغتهم، تقول لهم؟ ددوا النسل فيكون الجواب زيادة النسل، تقول لهم لا تسيروا حفاة فى مياه الترع والبرك فيخلعوا كل ملابسهم ويغوصوا فيها إلى الرقبة، وننشئ لهم جمعيات تعاونية زراعية فيحولوها إلى شركات مساهمة، وأخرى ذات مسئولية محدودة، واسأل العمدة ومفتش الزراعة وسكرتير الجمعية ومندوب البنك، ونشترى لهم عجول التربية بالدولار ونسلمها إليهم بتراب الفلوس، فيبيعونها فى «سوق التلات» وكل أبناء الفلاحين يدخلون الجامعات، ليصبحوا أطباء ومهندسين، وعن قريب نستورد فلاحين من تايوان وكوريا، والفلاحون أصبحوا سماسرة عقارات، والبنات عاملات فى مصانع النسيج، ولا أحد يبقى فى البيوت ليطبخ أو يكنس أو يخبز، والريف كله يعانى من نقص العمالة، ومع ذلك فقد زاد الإنتاج الزراعى على كافة المستويات عشرين فى المائة – اشرح من فضلك! – وعندنا ١٠٠ مصنع ينتج كل منها ١٥ مليون بيضة، وسعر البيضة ارتفع إلى ٢٠ قرشا – مش معقول!، الحقيقة أن كل شىء مش معقول مادمنا لا نتكلم نفس اللغة، مادام كل منا يحمل فوق كتفيه رأسًا ذا شكل خاص به، كيف يمكن أن تتساوى فى التفكير، الدماغ، والقلة، والبطيخة، وساعة الحائط، وكرة الشراب وكرة الجلد؟ بل كيف يكون لنا فكر إطلاقا، إذا كنا لا نهتم بالدماغ؟ هل تتصور أن الأب فى بلادنا يهتم بدماغ اينه؟ هل يخطر بباله أن يشترى لهذا الولد كتابًا أو حتى كراسة بيضاء؟ إنه يشترى له الطعام لينمو جسمه، أما الدماغ فليس له مكان من العناية، والعائلات عندنا تنفق الألوف فى جهاز البنات وتشترى للعريس حتى البيجاما، ولكن لا أحد يفكر فى شىء يقرأ، والنتيجة هى أن البيت المصرى يظل ملجأ لجماعة يعيش كل منهم فى عالم، والعقول داخل الأدمغة تظل كأنها ساعات حكومية معطلة اشتريت فى

مناقصة، كان عندى فى مدريد سائق للسيارة، وكان التفاهم بينى وبين هذا الرجل تامًّا فى المشاوير والرحلات، كنا نتكلم فى نفس الموضوعات ونتحدث نفس اللغة مع أنه أسبانى وأنا مصرى، هذا الرجل أتانى يوما يطلب ٥٠ جنيها سلفة، سألته عما ينفق فيه المبلغ فقال: أريد أن أشترى لأولادى دائرة المعارف الصغيرة التى أراها فى مكتبتك، إنها دائرة معارف أسبانية، عندهم هناك عشرات دوائر المعارف، لأنهم يهتمون بتكوين عقول أبنائهم وعقول أنفسهم، لهذا يتكلمون نفس اللغة وتأخذ الألفاظ عندهم نفس المعانى، إنهم يطبقون هناك الاشتراكية وهى بالفعل اشتراكية لأن معناها واحد بالنسبة لهم جميعا، أما عندنا فإن الاشتراكية كانت عند عبد الناصر وسيلة لوضع اليد على كل شىء، وعند العمال نهب أموال صاحب المصنع، وعند صاحب المصنع هى سرقة ونهب. وعند القيادات وسيلة لبسط النفوذ والإثراء، وهكذا الأمر فى كل الألفاظ والمعانى.

ولماذا نحن هكذا عوالم شتى؟ لماذا كل منا يفكر بطريقة تختلف عن الآخر، ولكل منا دنياه؟ لأننا لا نهتم بالعقول أبدًا، وهل اهتم أحد بتكوين دماغ للعم سعفان؟ لا أبوه اهتم بذلك، ولا أمه، ولا عمدة القرية أو شيخ الكتاب، لهذا يحمل المسكين فوق كتفيه قلة وهو لا يحس، لهذا هو ينجب الأطفال وكأنه أرنبة تلد وتجرى، لهذا يتزوج امرأة جديدة وأولاده لا يجدون طعام يومهم، ينامون تحت السلم على حصير، وفى الشتاء يتغطون جميعا ببطانية ممزقة. وشيخ الجامع يراهم هكذا، ولا يفكر فى أمرهم، لأنه يعيش فى عالمه الخاص به، عالم أئمة المساجد ومشايخها، هذا الشيخ يرى تعاسة عم سعفان بعينيه كل يوم ولكنه لم يحاول أن ينفعه برأيه أو علمه، إنه يعتقد أنه لا يكون إماما وخطيبًا وواعظًا إلا عندما يجىء وقت الصلاة، فيما عدا ذلك لا علاقة له بالبشر أو بتعاسة البشر،

إنه يعيش فى عالم المشايخ ويتكلم لغة المشايخ، والمشايخ يعيشون إلى الآن فى القرن الثامن، أو التاسع، أيام السخاوى والسيوطى وابن حجر، عالمهم هو هو لم يتغير رغم تغير الزمان والأحوال، ولهذا فإنهم عندما يقفون على المنابر ويخطبون فنحن لا نفهم ما يقولون لأن قرونا طويلة تفصل بيننا، وألف مرة صليت خلف أئمة وسمعت خطب الجمعة وألف مرة أحسست أن هذه الخطب ليست لى ولا لعصرى إنها صوت من وراء القبور. ترى متى يتحدث المشايخ لغة الناس؟ ترى متى يصبح المسجد جزءا من حياتنا؟ متى تدب الروح فى المساجد من جديد؟

* * *

أتدرى لماذا لساننا واحد ولغاتنا شتى؟، أتعرف لماذا لغتنا واحدة ومعانيها شتى؟، أتعرف لماذا نحن شعب واحد ولسنا أمة واحدة؟

لأن الصلة بين قلوبنا وعقولنا مقطوعة، القلب هو الإحساس، هو العاطفة والخير، القلب فى لغة القرآن هو الضمير، هو هذا الشىء الصغير الهائل الذى يجعل الإنسان إنسانا، ونحن يا سيدي لا نريد أن نكون ناسًا، وكل منا يريد أن يكون عالمًا قائمًا بنفسه مستقلًا عن الآخرين، عالم كل منا ينتهى عند باب مسكنه لأن قلوبنا ميتة، والواحد منا لا يحس متاعب الآخر، عقولنا شتى لأن قلوبنا شتى، وعالمنا عالم تعيس، ألم أقل لك إن الشيخ لا يحس أنه شيخ إلا على المنبر؟ فكذلك الوزير لا يحس أنه وزير إلا خلف الباب الأخضر، ومثله فى ذلك مثل أى مسئول آخر، إن قلبه لا يرافقه فى عمله، ولسانه لا يتصل بقلبه، إن الذين يعلموننا ينسون أن العلم الحقيقى يكون فى القلب، المرء ينبغى أن يكون إنسانا أولًا ليكون صادقًا، إذا لم يكن القلب جزءا من حياتك فلا بركة لك فى

مال أو ولد ولا وطن، لهذا نحن عوالم شتى. والميكانيكية فى الشارع تحتى لا يحسون قط بأن هناك مواطنين آخخري، فى حاجة إلى نوم أو راحة أو هدوء، لا يعرفون أبدًا أنهم مواطنون فى وطن واحد، أو أفراد فى أسرة واحدة، إنهم يحطمون رأسى ولا يشعرون، ويكسبون ويظلون فقراء، ويتكلمون ويضحكون وهم أموات، والموت الحق هو موت القلب، وهذه الفوضى التى نراها فى حياتنا سببها أننا نعيش بدون قلوب، قلوبنا فى أكنة، اى فى علب صماء، كما قال القرآن الكريم، يسألوننى كيف نصلح مناهج التعليم؟ هل ندرس الحساب فى الابتدائى أو الثانوى؟ هل نعلم الأولاد لغة أجنبية واحدة أو اثنين؟ ومتى نبدأ بكل منهما؟ أقول لهم إن الإجابة عن تلك الأسئلة كلها واحدة: أصلحوا القلوب يصلح التعليم كله.

ابدءوا بالقلوب وما عليكم ما صنعتم بعد ذلك، لأن العلم قلب، والوطن قلب، والسعادة قلب، والرخاء قلب، وأبو حامد الغزالى وهو إنسان عظيم لم ينص على شىء بقدر ما نص على قيمة القلوب، وكتاب إحياء علوم الدين هو كتاب إحياء القلوب، لهذا قال إن القلب خارج عن ولاية الفقيه، لأن فقهاء عصره كانت رءوسهم مثقلة بالفقه، وقلوبهم مقفرة من الحب. لهذا لم يكونوا علماء أو فقهاء، أو حتى ناسًا، وأبو حامد ترك الدنيا وهرب منهم عشر سنوات، كتب خلالها إحياء علوم الدين، كتبه بدم قلبه، والفقهاء هاجموا كتاب إحياء علوم الدين، وبعضهم أحرقوه لأنه كشف لهم عن حقيقة نفوسهم، وعرضها كما هى أمام أعينهم، وكانوا هم أول المرتاعين، بدلاً من أن يحرقوا أنفسهم أحرقوا كتاب إحياء علوم الدين، أحرقوا ضمائرهم واستراحوا، وعندما استراحوا ماتوا، أو بتعبير دقيق: مات العلم فى صدورهم، واقرأ ماكتب السيوطى فى سب أستاذه

السخاوى، وما كتب ابن حجر العسقلانى فى سب العلماء أجمعين، تفهم عنى مـا أريد قـوله، إننى أحتـرم هؤلاء العلماء ولكنى لا أحبهم، رغم إعجابى بالسيوطى، فأنا لا أحبه، ولا أحب تلميذًا يؤلف كتابًا كاملاً فى شتم شيخه. هؤلاء مع الأسف لم يكونوا علماء بل دواليب كتب.

لو أننا أحببنا عم سعفان وعلمناه لحمل فوق كتفيه رأسا لا قلة، لو أننا علمنا الميكانيكي وأحببناه لما دق دماغنا، وما أخذ منا مائة جنيه فيما يساوى عشرة، ولو أننا أحببنا الفلاح وعلمنا بقلوبنا لما هرب من قريته، وجلس إلى جانب عربة البطيخ وتكوم وتدلى رأسه حتى أصبح بطيخة، لو أننا أحببنا القاهرة لما صارت خرابة، لو أننا أحببنا مصر لكانت فى مقدمة الأمم.

خلق الله القلوب لتعيش بالحب، ولكن قلوبنا تموت بالحقد والجشع، ولأن قلوبنا شتى فإن عقولنا شتى، ومعظمنا يسير فى الدنيا حاملاً بين كتفيه قلة، القلة قد تمتلىء بالطب، أو الهندسة، أو علوم الأولين والآخرين، ولكنها تظل قلة، قلة من قوارير أو فخار.

والآن يا سيدى تحسس الذى بين كتفيك فى رفق لتعرف إن كان دماغا أو قلة أو بطيخة أو حصالة فلوس، أو كورة شراب، وضع يدك على قلبك حتى يتصل القلب بالدماغ.

لا تكن صغيرا.. أبدا

كان فيليبس والد الإسكندر المقدونى ملكًا قويًا طموحًا، وكان يكره الإغريق لأنهم كانوا يتعالون على المقدونيين، ويحقد على الفرس لأنهم خربوا بلاد اليونان، فأعد جيشًا هائلًا ليؤدب به اليونان ويخرب بلاد الفرس، ولكنه كان رجلًا جامد القلب، قاسى الطبع فاسدًا منهومًا إلى الشراب والنساء، وقبل سير الجيش إلى بلاد اليونان بأيام أقام حفلًا لقواده، وأكثر فيه من الطعام والشراب، وفى أثناء الحفل نهض وقد أثقله الشراب، ليجلس على كرسى آخر مع قائده سلوقس، فوقع على الأرض والكأس بيده ومات.

وخلفه ابنه الإسكندر. وكان فى الثانية والعشرين من عمره، ولكنه كان ذا عقل راجح وقلب منير. وقد أدبه أرسطوطاليس فأحسن تأديبه، ومضى يكمل استعداد أبيه ليسير إلى بلاد اليونان والفرس، فقال له القائد سلوقس:

اسمع يا إسكندر، إننا لن نسير معك، فقد رأينا أن ما كان يريده أبوك بنا أوهام مهلكة، والرجل الذى أراد أن يسود بحرين ويغزو قارتين سقط بين كرسيين.

فقال له الإسكندر:

بل ستقوم به يا سلوقس، وعندك حق فيما قلت، لأنك عرفت أبى ولم تعرفنى. فأبى اسمه فيلبيس وأنا اسمى إسكندر، وفيليبس أعد هذا الجيش لأنه كان غاضبا على اليونان يريد أن ينتقم منهم، أما أنا فأحب اليونان، وأريد أن أؤاخيهم، وأبى كان حاقدًا على الفرس يريد أن يخرب بلادهم، أما الإسكندر فيحب الفرس ويريد أن يخلصهم من طغاة الملوك. ونحن أيها القادة سنجمع أمم الأرض جميعًا على بساط المودة والعلم والمحبة، ولهذا فسنعبر البحرين، ونجمع بين قارتين ولن نقع بين كرسيين.

ويسمع أرسطو بما قاله الإسكندر فيبعث إليه يقول: نعم ما قلت ونويت، وأبوك فيلبيس كان ملكًا رخيصًا لأنه كان يريد تخريب الدنيا، فوقع بين كرسيين وغرق فى كأس من الخمر، أما أنت فإنسان ثمين لأنك تريد الخير والمحبة والأخوة، ولهذا فلن تقع قط بين كرسيين، وعندنا فى بلاد اليونان زهرة تسمى الأوركيديا، فخذها وازرعها فى تراب فارس وأرض مصر، وستجد فى مصر زهرة تسمى اللوتس، وعند الفرس زهرة تسمى الذلبان (التوليبان وهى التيوليب اليوم)، فأتنا بهاتين الزهرتين، واغرسهما فى ثرى بلاد اليونان، لتسود المحبة ويجتمع البشر تحت راية الأخوة..

وكان ما قال الإسكندر
وكان ما قال أرسطو.

وكلاهما لم يكونا رخيصين، لأنهما أرادا أن يكونا إنسانين غاليين، وإلى يومنا هذا نحن نتعلم من الإسكندر ونتعلم من أرسطو..

* * *

وفى سيرة عمر بن الخطاب نقرأ أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب يطلب منه أن ينصفه، وكان عمر مشغولا فضربه بالدرة وانصرف عنه، فمضى الرجل وهو يتذمر، وبعد قليل دخل عمر داره وصلى ركعتين، فدخل عليه الرجل وقال: يا ابن الخطاب، كنت وضيعًا فرفعك الله وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله ثم حملك على رقاب العباد، فجاءك رجل يستعديك فضربته، ما تقول لربك غدًا إذا أتيته؟. قال: فجعل عمغ يعاتب نفسه فى ذلك معاتبة حتى ظننا أنه خير أهل الأرض (أسْد الغابة ١٥٧/٤).

وفى مقابل ذلك نقرأ فى كتاب الوزراء للصابى. أن الوزير أبا القاسم بن مخلد عرض على الخليفة الراضي جريدة (حساب أموال) اليتامى، فجعل ينزل منها وينزل ويأخذ لنفسه ما ينزل حتى بقيت عشرون ألف درهم. فحملها الوزير وأضافها إلى ماله ولم يصب الأيتام شيء.

فعمر هنا رجل أغلى نفسه بمحاسبة النفس فأعزه الله وزاده رفعة. وهناك خليفة ووزير مدًا أيديهما فى أموال الضعف فأرخصا نفسيهما بذلك، وهانا على الله والناس، فلا عجب أن ذل كلاهما واحتقرهما الناس. وإليك صورة هذا الخليفة الرخيص كما رسمها ابن طباطبا فى كتاب الفخرى قال: «وكان قصيرًا جدًا فى غاية القصر، فاحتاجوا أنهم قطعوا من قوائم سرير (كرسى) الخلافة أربع أصابع حتى يتمكن الكرخى الوزير فى مشاورة الخليفة، وتطير الناس وقالوا: هذا مؤذن بنقص الدولة، فكان الأمر كما قالوا عليه واختلفت الأحوال واضطربت الأمور لديه فاستتر.

وفى أخبار المجاهد نور الدين محمود أنهم حملوا إليه مرة مالاً كثيرًا

غنموه من هجوم على قلعة للصليبيين قرب إدلب وقالوا له: الآن تبنى لك قصرًا يليق بك فى حلب فقال: هاتوا المال، وقبضه ومضى به إلى عزاز وكانت بها سوق عظيمة للخيل والسلاح، فاشتري بالمال كله سلاحا وخيلا، وفرق ذلك كله على «الجدد» وهم صغار المطوعة من المسلمين، ودربهم على ركوب الخيل واستعمال السلاح، ثم بنى من ماله مخيما واسعا أسكنهم فيه، وجعل لنفسه فيه غرفة وقال: هذا هو القصر الذى أشتهيه.

ولو أن نورِ الدين بنى لنفسه قصرًا بهذا المال لكان إنسانًا رخيصًا، ولكنه كان رجلاً غاليا فأعز الإسلام ليعز هو به، ولهذا كان بطلا يزهى به تاريخنا وهو الذى مهد الطريق لنصر صلاح الدين.

وقبيل سقوط قرطبة تزعم المسلمين رجل يسمى سيف الدولة ابن هود، واجتمع له ثلاثون ألف جندى. وعندما حاصر الملك بدرو القاسى قرطبة استغاث أهلها بسيف الدولة فسار إليها ووقف على ثلاثين كيلو مترا جنوبها، وخاف الملك الإسبانى منه وفكر فى الانصراف عنٍ قرطبة خوفًا من المسلمين، ولكن سيف الدولة هذا كان رجلاً رخيصًا دنيئا فخاف على نفسه واستولى عليه الجبن. فترك قرطبة لتسقط فى يد الأعداء، ومضى إلى مدينة المرية، وكانت له هناك امرأة جميلة وضعها فى أمان رجل من رجاله يسمى الرميمى، فمد هذا الرجل يده إلى المرأة وحازها، ووصل سيف الدولة، فدبر له الرميمى تدبيرا وقتله ورمى بجثته من أعلى حصن..

وهكذا أبى الرجل الرخيص أن يموت فى ميدان الرجال والشرف، وهرب ليموت ميتة الكلب فى سبيل امرأة رخيصة مثله.

وكل إنسان منا يكون حيث يضع نفسه فإذا رفعت همتك وأعززت نفسك أكرمك الله وأعزك وكنت إنسانًا رفيع القدر وإن قل مالك، وكم من

رجل يمر بك فى السيارة الفارهة والمنظر الباهر وهو فى سيارته أقذر من الخنزير.

وأذكر أن الأستاذ عباس محمود العقاد قص علينا آخر مشهد جرى بينه وبين مصطفى النحاس باشا زعيم الوفد، وكان العقاد كاتب الوفد الأول، وأراد النحاس باشا أن يجعله يكتب ما يريد فرفض واستدعاه إليه فمضى للقائه، ودارت بينهما مناقشة حامية، قال العقاد فى ختامها: تستطيع يا باشا أن تفعل ما تريد، ولكن مادام فى يدى هذا القلم، فلن أكتب إلا ما أريد، وإذا كنت أنت نسيت فأنا لا أنسى أننى عباس محمود العقاد.

وأخرج العقاد القلم الذى هزه فى وجه الباشا العظيم، كان قلم رصاص ثمنه قرش، ولكنه كان فى الحقيقة أغلى وأعز قلم عرفه الأدب العربى الحديث، وبه بنى العقاد حصنًا من أمتع حصون الفكر العربى.

ولو أذل العقاد نفسه وقلمه لكسب المال الكثير ودخل الوزارة والباشوية، ولكنه ظل رجلاً بسيطًا يسير على قدميه، ويركب الترام إلى مصر الجديدة، وهو فى سيره هذا كان أعظم من أعاظم الباشوات.

* * *

وعندما وصل جون روكفلر الأب إلى مواقع البترول فى أمريكا كان لا يملك إلا نحو مائة دولار، وكان معه صاحب له، ومرا فى طريقهما على إدارة تطلب كاتب حسابات، وعندما جلسا للطعام انسل صاحبه ومضى فحاز الوظيفة، يحسب أن روكفلر سينافسه عليها، وكان روكفلر قد رأى اللافتة ولكنه لم يحفل لها، إنه كان يطلب ماهو أعظم، وانصرف وحده إلى مواقع التنقيب ومضى يعمل، ونفدت نقوده ولكنه صبر وأصر على أن

يصل إلى ما يريد، وفى أثناء ذلك كان صاحبه قد أصبح مدير حسابات وتزوج، وفى نهاية خمس عشرة سنة وضع روكفلر رجله على أول سلمة من سلالم الملايين، وأقام بعد ذلك دولة المال الكبرى، لأنه رجل أغلى نفسه ولم يرخصها، أو لم يطلب الملاليم فنال الملايين، والإنسان دائمًا حيث يضع نفسه.

أقول هذا كله لأننى أرى الشباب من حولى يتهالكون على وظيفة، ويتقاتلون على شق يسمونه شقة، ويخطبون بنتا لأن أباها يمكن أن يوفر لهم مسكنًا، وهم بهذا كله يرخصون أنفسهم، وهم فى العادة يقولون: وماذا نستطيع أن نفعل؟

ولهؤلاء جميعًا أقول: لو أننا فتحنا الباب لشباب الحرفيين من الأرمن، واليونان، والإيطاليين لرأيتم العجب، يدخل الواحد منهم بلدنا وفى يده حرفة: ميكانيكى، أو كهربائى، أو ساعاتى، أو اختصاصى فى الآلات الكاتبة، أو الحاسبات الألكترونية، أو المصاعد أو البقالة أو حتى الجزارة.. وانظر إليهم بعد عشر سنوات فستجد كلا منهم قد جمع مالاً وأنشأ محلاً جميلاً وأصبح صاحب عمل كبير، وكل ما تحلمون بـه أنتم أصبح ملك يمينهم، وتسألنى كيف يصلون إلى ذلك فأقول لك: لأنهم يرفضون الفقر ولا يبيعون نفوسهم رخيصة أبدًا، وبالصبر والجلد والإتقـان يخرجـون القرش من الحجر، ولا أنسى أبدًا أننى كنت ذات مرة فى طريقى إلى الولايات المتحدة على السفينة مع أسرتى، وتعرفنا بشاب نمسوى متخرج فى الآداب، وكان يقصد أمريكا، ليشغل وظيفة مدرس لغة ألمانية تعاقد عليها، وكان أبوه صاحب مخبز فيه قسم للفطائر والحلوى، وكان الشاب قد تعلم الخبز وعمل الحلوى فى فرن أبيه فى أوقات فراغه، وحصل على

شهادة من اتحاد الخبازين، فلما رست السفينة فى ميناء نيوهاليفاكس فى كندا، صعد موظفون من إدارة الهجرة الكندية، ونصبوا لافتة كبيرة تطلب حرفيين منهم الخبازون وصانعو الحلوى، وقال رجال الهجرة: إن الحكومة الكندية تقدم لصاحب الحرفة محلًا ومعاونة مالية، ومسكنا بصفة سلفة تسدد خلال فترة طويلة، وفوق ذلك كله الجنسية الكاملة فى مدى عام واحد، إذا ثبتت الكفاية المهنية وحسن السلوك. ولو كان شابًا مصريًا لتردد وفكر. وأقبل وأدبر ولكن الشاب النمساوى، لم يتردد وتقدم، وتخلى عن التدريس وأقدم على تغيير مسار حياته كلها، دون أن تطرف له عين، وقال لى وهو يودعنى: هنا أبدأ عزيزًا على أرض ثابتة، إن أمامى هنا طريقا طويلًا وشاقًا ولكنه يغنينى عن وظيفة التدريس التى أظل فيها فقيرًا عمرى كله.

وأعطانى خطاب اعتذار إلى المدرسة التى كان قد تعاقد معها، وهى فى بنسلفانيا فقلت له: ولماذا تستقيل؟. اطلب مهلة لكيلا تضيع من يدك هذه الفرصة فمن يدرى فقال:

- بل لابد أن أضيعها وتضيع معها تأشيرة الدخول إلى الولايات المتحدة، حتى لا يكون أمامى إلا طريق الفرن والخبز، هكذا لابد أن أنجح فليس لى مفر من النجاح.

إن شبابنا يظنون أن رجال الحكومة أسعدوه عندما فتحوا له باب الجامعة ليدخلها مجانا، ومنحوا له الوظيفة بعد التخرج، والحقيقة أنهم قضوا عليهم لأنهم قتلوا فيه الطموح وحرموه من فرصة تحدى الحياة. لقد قال عبد الناصر يومًا: لن أستريح حتى يأكل الثلاثون مليونا من يدى!. كان هو يخاف الشاب الطموح، والشاب العزيز، والشاب المرفوع الرأس،

وفى إحدى خطبه قال: وما هى الحرية؟ إنها أن يقفل الإنسان بابه على أسرته ويتعشى وينام، وهذه حرية الدواجن لأن القنوع يحميها من عدوان الكواسر. لهذا فتحوا الجامعة على مصاريعها ودخلنا طريق الفقر. انعدمت الشخصية وانتهى الاختيار واتخاذ القرار، وأصبح المجموع هو الذى يختار ويتخذ القرار، وثمانون فى المائة من الذين يدخلون الجامعات لم يخلقوا لدخول الجامعات، وهم إذ يدخلونها يكونون بعد التخرج بين أحد أمرين: إما الاستمرار فى عمل لا يحبونه، ولا يصلحون له ويحتملون الفقر لا محالة وإما الانحراف، أى التماس الكسب غير المشروع فى الوظيفة، ولهذا نجد عندنا الكثيرين من الموظفين المرتشين أو الحرفيين الذين يسيئون استخدام المهنة، ولماذا والله ينهار الكثير من العمارات الجديدة؟ لأن المهندسين الذين يضعون رسومها ويعملون حسابها ويوافقون على التعلية دون حساب احتمال المبنى القائم ليسوا فى الحقيقة مهندسين، بل مجرد حملة شهادات هندسة؟ ولأن هناك المهندس المنحرف، أو الذى لا يعرف عمله، وكلاهما لابد أن يكون قد دخل كلية الهندسة خطأ. وهل هناك مهندس محترم دخل الكلية برغبته ودرس فيها عن حب، ثم يضطر بعد ذلك إلى أن يبيع ضميره لمقاول أو صاحب بيت؟. وهل من المعقول أن طبيبًا دخل كلية الطب عن رغبة حقيقية فى دراسة الطب وحب لتلك المهنة الجليلة، ثم يطلب الأجر قبل أن يمس المريض أو يرفض فتح حجرة العمليات قبل أن يتقاضى المبلغ الذى يريد؟. وهل معقول أن يلجأ محام يعرف كرامة المهنة ويحب القانون ويدرسه لأنه يعرف قدره، ثم ينصح عملاءه بإعلان الخصوم «بالطريقة الأمريكانى». أى إرسال الإعلان إليهم فى عنوان لا يمكن أن يتسلموه فيه، ثم يستند إلى هذه الأساليب الرخيصة ليكسب قضية بهذا الشكل الوضيع؟ لقد فعل هذا

معى أحد المحامين «وكسب» منى قضية دون أن أعلم، ومـا أدرى إلا والمحضر يبلغنى أن إنسانا لا أعرفه أخذ حكما على وهو يطالب بإخراجى من شقة كانت لأمى. والمطالبة جاءت بعد فوات وقت الاستئناف. فكان هذا المحامى الخسيس تواطأ مع صاحب بيت ومحضر وظن أنه كسب. وقد خطر ببالى أن أذهب إليه لأنظر الأمر، ولكنى عندما نظرت فى وجهه لم أفتح فمى، وهان على التسليم بما طلب فانصرفت، وأغرب من ذلك أنه تمادى بعد ذلك وأرسل يطلب نفقات خبير، وكان محام آخر قد أكد لى أننا نستطيع أن نجعل القضاء يفتح باب القضية من جديد ونكسب فقلت له: يا عزيزى إذا بلغت المحاماة هذا الـدرك فلا والله لا أريـد أن أكسب. سأدفع ما حكمت به المحكمة والعوض على الله لا فى القضية الصغيرة، بل فى الأمل فى العدالة.

إن شباب اليوم يقف حائرا أمام أبواب يظن أنها مغلقة ويقول: ماذا أفعل؟. ولو أنه استطاع أن يتغلب على تمسكه بشهادة جامعية لاتعنى شيئا واتجه إلى حرفة أخرى مما يكسب المال الحلال لما تحير لأن الدنيا لم تنته بعد وأبواب المكاسب لم تغلق، والأرزاق مفتوحة الأبواب، وفى بلدنا هذا ألـوف أبواب الـرزق الحلال، ولكننـا لانراهـا لأن على عيـوننا تلك الشهادات التى هى أشبه بقطع الجلد التى يضعونها على جوانب عيون الخيل والبغال والحمير حتى لا نرى إلا طريقًا واحدًا هو طريق المواشى. وعبدالناصر قال يومًا: لن أستريح حتى يأكل الثلاثون مليونا من يدى!. وقد فعل وفعلنا!° ومازلنا إلى اليوم نأكل من كفه المفتوحـة ولكن أى أكل!.

وقد كتبت مجلة فورشن الأمريكية سنة ١٩٦٥ مقالا قالت فيه: إن

زمن عمل الملايين قد انتهى ولن يجيء مرة أخرى أمثال روكفلر أو فورد أو تدربيلت. وفى سبتمبر ١٩٨٢ أصدرت مجلة فوربس الأمريكية عددا خاصا عن أصحاب البلايين وأصحاب الملايين الذين يملك الواحد منهم ١٠٠ مليون فما فوق فى الولايات المتحدة فأحصت منهم ٤٠٠ رجل وامرأة ذكرتهم بالاسم وخصصت لكل منهم فقرة طويلة، تبين أن منهم ٢٨ بدأوا من الصفر من أوائل السبعينات ومنهم على سبيل المثال شاب دخل الولايات المتحدة مهاجرا من تشيكوسلوفاكيا ولم يكن يملك إلا حوالى ٢٠٠ دولار، وهو ابن صاحب كافيتريا صغيرة فى براج. وله فهم وتخصص فى مسائل المطاعم والمطابخ، وأهم من ذلك أنه كان صاحب عزيمة وطموح وإصرار على ألا يكون صغيرًا، وبدأ بعربة قهوة وعصير وشاى على ناصية شارع صغير فى مدينة (كولورادو)، وكان قد قصدها لأن له اختا متزوجة بمدرس هناك، والعربة التى بدأ عليها أصلها عربة أطفال أعطته إياها سيدة، لأنها لم تعد تحتاج إليها فأخذها وأعدها إعدادًا جميلًا كله ذوق ونظافة، وفى أول يوم وقف فيه لم يكن معه إلا ١٦ دولارا. وكان قد اشترى كيسًا قديمًا من تلك التى يستخدمها الرحالة والذين يتسلقون الجبال فيدسون أنفسهم فيها ويقفلونها «بسوستة»، وينامون فى دفء وقد سمح له صاحب قطعة أرض تستعمل موقفا لسيارات (باركنج لوت) بالنوم، والوقوف بالعربة فى مقابل تقديم القهوة له ثلاث مرات فى اليوم مع فطيرة ساعة الغداء، وفى أول يوم مر بالمحلات التجارية والمكاتب المجاورة، وأبلغ عن «افتتاحه» عربته وأخذ طلباتهم فى مفكرة، فكان يعمل ساعة ثم يوزع الطلبات نصف ساعة طول اليوم حتى منتصف الليل، ثم يغسل العربة، وينظف مواعينها ويعد أشياء اليوم التالى، وفى الواحدة بعد منتصف الليل يدخل كيسه وينام فى ركن من موقف

السيارات، وقد سمح له الرجل بذلك لأن قوانين الإسكان والإيجارات هناك عادلة وواقعية، ولو أنك سمحت لرجل كهذا بأن يقف بعربة، وينام فى أرض هى لك رحمة به لأتاك من الغد بامرأة وأربعة أولاد، وإذا أردت إخراجه بعد أسبوع لجأ إلى محام يعمل على الطريقة «الأمريكانى» وطالبك بعشرة آلاف جنيه تعويض. ولن تستطيع أن تمس عربته حتى يبت فى القضية بعد سنوات، وفى النهاية يحكمون بأنه لا حق لك فى إخراجه، وتصبح العشرة آلاف ثلاثين ألفا. ولهذا يقسو الناس عندنا بعضهم على بعض، ولا يأمن بعضهم بعضا، وكلما كنت أحقر كنت أقوى، لأن الحقراء كلهم يقفون معك.

واتسعت أعمال الرجل واقتصد مالاً له شأن فى ثلاث سنوات، وهنا ندخل فى العقلية التجارية العملية الأمريكية، فإن صاحب الأرض يرى اجتهاد ذلك الشاب وذكاءه، فيفاوضه على الاشتراك فى العمل: هو يقدم المكان، والثانى يقدم العمل، وهنا أيضا نجد الشاب التشيكوسلوفاكى ينشئ شركة اسمها ميدواى للمطاعم ويدخل فى شركة مع من يريد أن يقدم الأرض أو المكان، ويفتح الرجلان أول مطعم كافيتيريا، ولا يكون تفكير الرجل محصورًا فى «خطف» قرشين وشراء سيارة وشقة وما إلى ذلك. بل إنه يخطط لشىء أكبر وأهم فيتفق مع مزرعة كبيرة للدواجن، وأخرى للمواشى والخضروات والفاكهة، والنظم هناك تساعد، أما عندنا فإن الإدارات تقف لك فى كل طريق، ولكى تنشئ شركة محترمة منتجة وأمينة فهناك ألف عقبة، أما إذا شئت أن تنشئ مركز خطف ونهب ولطش وتهريب فلا قيود هناك. المهم أن الشاب ابتدأ يتوسع فى كل عام، يتفق مع محلات أو كافيتريات قديمة على إنشاء مطاعم وكافيتريات ميدواى، حتى

أصبح عددها الآن ١٣٨ منتشرة من الساحل إلى الساحل كما يقولون وتتبعها مزارع، ومخازن وشركة نقل وإدارات، والشاب أصبح طبعا مليونيرًا.

ولابد أن أضيف هنا أن النظام العام فى كل العالم- عدا مصر - يقف إلى جانب أى عامل ذكى نشيط أمين، وهنا مع الأسف يستطيع أصغر موظف إدارى أن يوقف مشروعًا، ويفتح أبواب الرزق والعمل لعشرات الألوف، ولكى تفتح دكانًا صغيرًا لابد من موافقة عشر وزارات، لأن النظام الإدارى عندنا وضع لخراب البيوت لا لفتحها.

واسمع هذا الخبر: لعلك سمعت بالممثلة السينمائية جيم فوندا، فهذه السيدة لاحظت اهتمام الناس فى أمريكا والغرب بما يسمونه بالكفاءة البدنية (فيزيكال فيتنس) والناس هناك يراقبون طعامهم مراقبة علمية، وعندنا تحشو السيدات أنفسهن بالنشويات فى الصباح إلى المساء «خبز وفول وأرز ومكرونة وبطاطس» وكل بنت أو سيدة، أو رجل هناك يقوم بتدريبات رياضية فى البيت أو فى ناد، ففكرت جين فوندا فى أن تحول التدريبات من واجب ثقيل إلى عملية رقص جميلة، تقوم بها السيدات مفردات أو مع الأسرة، أو مع ساكنات البيت، أو فى صالات مهيأة لذلك، واشتركت مع آخرين فى عمل دفاتر التدريبات وشرائط الموسيقى والفيديو، ونشأت قاعات تسمى الأيروبيك حيث تمارس البنات والسيدات الرياضة جماعيًا تحت إشراف مدربة فنية وأمامهن على شاشة عريضة شريط الفيديو والموسيقى، وانتشرت تلك القاعات وجماعات الإيروبيك فى أمريكا كالنار، ومنها انتقلت إلى أوربا حيث تولتها ممثلة أمريكية الأصل تعمل فى أوروبا تسمى سيدنى روم، وتصور أنت الملايين

التى تجمعت الآن لجين فوندا وشركائها من وراء هذه الفكرة، لأن الأمر اتسع فهناك ملابس التدريب وكتبه، وشرائطه الموسيقية، والفيديو وبرامجه فى محطات الإذاعة والتليفزيون، وهناك الأطباء والمدربون والمدربات، ومطاعم الإويروبيك ومجلات وجمعيات ورحلات ونواد للإيروبيك.

كل ذلك من فكرة واحدة ولكن لا ينبغى أن ننسى أن الفكرة بذرة، والبذرة لابد لها من أرض صالحة. والأرض هنا مع الأسف غير صالحة بسبب النظام الادارى، فأنت إذا فكرت فى تنفيذ فكرة فلابد أن تنشئ معها «مصلحة رش لكى ترش رايح جاى» «والمرشوش عليهم» «موظفون بدءوا حياتهم محترمين». ولكنهم أصبحوا مع الأسف «غير محترمين» والواحد منهم تجلس إليه لتكلمه فيفتح أحد أدراج مكتبه من ناحيتك نصف فتحة، وهذا هو صندوق النذور أو الصدقات غير المباركة.

صدق أو لا تصدق: كانت عندنا صناعة قبل أن تولد وزارة الصناعة، وكانت عندنا تجارة قبل أن نعرف وزارة التجارة، وكان عندنا علماء وفنانون عظماء قبل أن تنشأ الجامعات والأكاديميات.

ولكن لا تيأس أقول لك: هذا هو التحدى الذى لابد أن تواجهه لئلا تكون صغيرًا، لابد أن نصلح هذا كله ولا مفر من إزالة هذه العقبات كلها، لأن هذه العقبات هى نحن، وعندما تجلس إلى موظف لتقضى مصلحة ويفتح درج الصدقات، فاقفله، وقف وقل بأعلى صوتك: أيها السادة أنا لن أدفع شيئًا ولابد أن أقضى مصلحتى، وإلا فستتحطمون جميعًا ! هنا يخافونك، وتصبح كبيرًا كالجبل. أما إذا أحنيت رأسك ووضعت ما فيه القسمة فى الصندوق فستظل صغيرًا. وتظل تصغر حتى تصبح لاشىء.

فى وادى الملوك

هذا موسم الحصاد، وعشرات الشركات التى أنفقت عامًا كاملاً كله جهد وعرق تحصد اليوم ثمار الجهد والعرق، وهى الدموع، والدموع تسمى فى مصطلحنا اليوم بالأرباح، وعيون القائمين على هذه الشركات من رؤساء مجالس الإدارات والسادة نواب الرؤساء ونواب نواب الرؤساء وأعضاء مجالس الإدارات ومن يليهم فنازلاً على سلالم الإدارات العجيبة حتى تصل إلى العامل الكادح التعبان المضحى فى سبيل الوطن، أولئك جميعًا تجرى عيونهم بالدموع الغالية مدرارًا. ومصر العزيزة الصابرة تحصد الدموع وهذا هو نصيبها من جهد أبنائها، عليها بعد ذلك أن تحول الدموع إلى أرباح والأرباح تنشر فى البيانات التى تنشرها الشركات فى الصحف هذه الأيام، وكلها والحمد لله وردية زاهرة مطرزة بماء الذهب، وهذه البيانات من نصف صفحة إلى صفحة كاملة فى الصحف اليومية خلاصتها أن الأرباح هذا العام حطمت كل رقم قياسى يخطر على البال، لأن عباقرة الإدارة عندنا فاقوا أندادهم مديرى شركات أخرى مثل: الفيسات والجنرال موتورز، وأسو وموبيل أويل، فهؤلاء مديرون ورؤساء مجالس إدارات متأخرون، لا تصل أرباح شركاتهم إلا إلى ٥٠ أو ستين فى المائة، أما نحن فإن أخيب شركة عندنا تحقق أرباحا مائة فى المائة. وهناك

شركات تكسب ١٤٠٪ وأخرى ١٤٥٪ وإنتاجية العامل وصلت فى بعض الشركات العبقرية إلى ١٥٠ فى المائة، وهى نسبة لم يصل إليها عامل يابانى أو غير يابانى، وهذا العامل المصرى العظيم الذى نراه طول النهاريتشمس فى فناء المصنع ويشرب كوب الشاى وراء كوب الشاى، هذا العامل الذى تراه يحقق إنتاجية تصل إلى ١٥٠ فى المائة لأنه عبقرى وليس غبيًا مثل العامل الفرنسى أو الألمانى أو اليابانى، فهؤلاء أغبياء متأخرون، ولهذا فهم يعملون لكى يكسبوا، أما عاملنا المصرى أعظم عامل فى الدنيا فقد وصل إلى مالم يصل إليه عامل فى الدنيا. إنه يربح وهو جالس يتشمس ويشرب الشاى، وإذا لم يعجبك هذا الكلام فانظر فى بيانات الشركات موقعًا عليها من فلان وفلان وشركاهم محاسبين دوليين.

ومن زمن طويل يقول الناس إن خدمة الأوطان جهد وعرق ودموع، وقد قسمنا نحن هذه الثلاثة قسمة عادلة بيننا وبين مصر العزيزة، فلنا الجهد والعرق ولمصر الدموع، والجهد ياسيدى عندنا هو جهد المقل. والعرق عرق العافية، والشىء الوحيد المؤكد هنا هو الدموع، وتلك هى القسمة الضيزى التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم، واذكر قول الله سبحانه فى سورة النجم: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذن قسمة ضيزى إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ والأسماء التى سموها هم وآباؤهم هى الأرباح، وهم حقا لا يتبعون إلا الظن وما تهوى نفوسهم.

وإذا لم يعجبك هذا الكلام فتقدم ياسيدى بطلب إحاطة فيجيبك الرد الحاسم الدامغ فى [illegible]رة بيان لا يخر الماء مدعمًا بالقوانين واللوائح

والقرارات، فإذا أبيت أن تقتنع، فليس لك عندنا إلا النبوت أو الشلوت واختر بينهما ياسيدى وخذ ما هو ألذ عندك وأشهى إلى نفسك.

وهذه الشركات جميعا تتبع وزارات، وهى بدعة ابتكرناها، ولا نظير لها فى الدنيا، فالوزير بطبعه رجل هالك تحت ثقل مسئوليات وزارته، فجئنا نحن ووضعنا على كاهل كل وزير من عشر شركات إلى عشرين حتى نقضى على البقية الباقية من جهده وعافيته فى أسرع وقت ممكن، فعليه أن يعصر نفسه عصرًا حتى يدير هذه الشركات جميعا ويشرف على أعمال كل منها إشرافًا دقيقًا مباشرًا وما يقدر على القدرة إلا القادر.

ولهذا فإن الوزراء يتساقطون كأوراق الخريف، وبين يوم وآخر يخطف الواحد منهم رجله إلى لندن أو نيويورك ليجرى عملية فى القلب ثم يعود ليحمل العبء الثقيل..

أما لماذا يتسابقون على الحصول على الوزارات رغم هذا الهلاك، ولماذا يتمسكون بالوظيفة ويتشبثون بها تشبث المستميت؟! فهذا يرجع إلى فرط الوطنية والإصرار على التضحية فى سبيل الوطن، فإذا لم يقنعك هذا فلا تجر وراء المتاعب. فإن العلم الزائد على حده يضر تماما كالعلم الناقص، وقديمًا قال شكسبير فى هامليت على لسان أحد أبطاله: (هو راتشيو) هناك أشياء يحسن أن تغيب عن علمك! وحديثا قال شاعر الربابة الشعبى:

مـلك الملوك إذا وهـب	لا تسـألن عـن السـبب
الله يـعـطى من يـشـاء	فـقف عـلى حـد الأدب

أما لماذا ينبغى أن تقف هنا عند حد الأدب فلأنك تطأ هنا عتبات عالم مسحور كله أسرار وأخطار، هو عالم الأقوياء والناس العظام، إنه دنيا

الجاه والسلطان. إنه يشبه وادى الملوك الراقد هناك على الضفة الغربية للنيل أمام الأقصر مدينة السحر والفن والعلم. هنا فى وادى الملوك يرقد أو كان يرقد عدد من عظماء ملوك مصر تحتمس الأول والثالث ورمسيس الثانى، أما أشهرهم فهو توت عنخ آمون ذلك الملك الصبى الذى قدر له بعد نحو ثلاثة آلاف سنة من موته أن يبعث حيًا ليشغل وظيفة سفير مصر المتنقل إلى كل بلاد الدنيا، إنه ما يسمى فى وظائف السلك السياسى: امباسادور آت لارج، أى سفير مطلق بلا سفارة، إنه سفير المجد المصرى الذاهب أيام كانت مصر جوهرة الدنيا ونجمها الصاعد وقائدة الأمم.

ووادى الملوك ومعه وادى الملكات يعتبران أعظم مؤسسة اقتصادية تملكها مصر بعد قناة السويس، فهما مصدران لدخل بلا حدود، لأن مئات الألوف من البشر من أقطاب الأرض الأربعة يريدون أن يزوروهما، فهنا أعظم مقبرة على وجه الأرض، فبعد أن تزور الأقصر وتمتلىء نفسك بروعة الكرنك تعبر النيل إلى الضفة الأخرى وتنزل قرب تمثال ممنون، ومن ثم تمضى إلى تل ضخم كأنه الهضبة تشقه وديان أنشأ الناس شوارع تؤدى إليها، فى هذه الوديان مدافن عظيمة، إذا دخلت بعضها مثل مقبرة سيتى الأول وجدت نفسك فى عالم من الروعة والرهبة والفن والجمال الحزين والعبرة. ممرات طويلة رسم المصرى القديم على جوانبها مناظر الأرض وعلى سقفها مناظر السماء، فقد نبش اللصوص معظم هذه القبور وسرقوا كل ما فيها ولكنهم لم يستطيعوا سرقة الجدران أو السقوف، وفيها من العلم والفن مجلدات، وعندما تصل إلى غرفة الدفن فى النهاية فأنت فى الغالب لن تجد إلا حجرة من الجرانيت خاوية على عروشها، ولكن رجلًا سعيدًا يسمى هوارد كارتر عثر فى سنة ١٩٢٢ على غرفة الدفن سليمة

عليها أختامها، هنا كان يرقد توت عنخ آمون فيها تابوته الذهبى وحوله كل ذخائره، والمصريون القدماء كانوا أعقل بكثير من المحدثين: كان الرجل منهم إذا مات أخذ معه كل ذخائره حتى لا يتشاحن الورثة ويسرعوا إلى المحاكم.

من هنا خرج توت عنخ آمون وصدر أمر بتعيينه سفيرًا طائرا فى وزارة الخارجية، وطاف الدنيا ودعا لمصر دعوة واسعة، وما يكاد يزور بلدًا حتى يهرع أهله إلى مكاتب السياحة ليزوروا مصر ويروا آثارها العظيمة، وكان من الممكن أن يكون وادى الملوك والأقصر والكرنك وبقية مواقع الفن والعلم حتى إسكندرية البطالسة مورد الدخل الأول لمصر، ولكن سيل السائحين انحسر وتراجع، وكل سائح أتى عاد ليقول لقومه: لا تذهبوا إلى مصر، إنها جميلة وآثارها رائعة، ولكن المتاعب التى تلاقونها هناك تفوق ما ستظفرون به من المتعة. فاقرأوا عن مصر فى الكتب ولا تزوروها، ولا داعى أبدا لأن يذهب الواحد منكم ليزور وادى الملوك فيختم حياته فى دهاليز أحد القبور.

ووادى الملوك وكل آثار مصر تابعة لوزير السياحة، وهى فى مجموعها تعتبر أعظم مورد من موارد الدخل لمصر. ولكن السيد وزير السياحة. وأنا لا أعنى هنا الوزير الحالى أو السابق عليه أو التالى له عن قريب، وإنما أعنيهم أجمعين، ففى عصور حكمهم السعيدة انتهت مصر كبلد سياحى. ولم يعد يقبل لزيارة الآثار فيها إلا المغامر الجرىء. ووزراء السياحة يعللون هذا التراجع وتلك الخسارة بتعليلات وأسباب مهذبة معقدة وغامضة، مثل المتغيرات الدولية والأزمة الاقتصادية العالمية وارتفاع

أسعار السفر بالطائرات، وأمثال هذه الحجج والأعذار التى نقبلها لأننا ناس مهذبون نقف على حد الأدب.

وأنصح السيد وزير السياحة أو الذين يرشحون أنفسهم ليكونوا وزراء سياحة فى المستقبل بأن يقرءوا خطابات زوار مصر من الأجانب التى تنشرها جريدتان مصريتان عظيمتان إحداهما تصدر بالإنجليزية وهى الأجيبشان جازيت، والثانية بالفرنسية وهى البروجريه أجيبسيان، فهنا يشرح سائحون صادقون المتاعب التى يصادفونها فى زيارتهم لمصر ومعظمهم يؤكدون فى خطاباتهم أنهم محزونون جدًّا بسبب سوء معاملة المصريين لزوار آثارهم ومعالم مجدهم من الأجانب. وأنا أنصح وزير السياحة المقبل بأن يقوم بالتجربة لحسابه من الآن، فستكون هذه أكبر معين له على النجاح فيما لم ينجح فيه وزير سياحة سابق، ستذهب أيها السيد الوزير المقبل إلى أى بلد أوروبى ثم تعود منها سائحًا، أى تزعم أنك سائح، ولهذا يحسن أن تتكلم عندما تصل مطار القاهرة لغة أجنبية ولا عليك إذا كانت لغتك الأجنبية فى غاية البهدلة، فلن يلاحظ أحد ذلك، لأن مستوى معلوماتنا فى اللغات أصبح يعتبر بواب الفندعالما فى اللغات.

وستفرغ يا سيدى من إجراءات الجمارك، فهى طيبة اليوم ولا بأس بها، وتصل إلى باب الخروج من المطار لتجد نفسك محاطًا بعصابة مخيفة من مافيا سائقى التاكسى، وهم يحيطون بك وأنت - طبعًا - لا تفهم حرفا مما يقولون، ولكنك ستشعر بالخوف قطعًا. ولا تفكر ياسيدى الوزير الحق فى الاستعانة برجل البوليس، إنه أمامك ولكنه لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم، وربما كان معذورًا لأنه رجل واحد، وهؤلاء مافيا يتنازعون

حقائبك وثيابك ولا مفر لك من التسليم، ولن تصل إلى فندقك إلا وقد طارت منك ما بين عشرين وخمسة وعشرين جنيها على الأقل.

وأنت قد حجزت حجرتك، ولكن موظف الاستقبال فى الفندق يقول إن اسمك ليس هناك. ولا تنزعج ياسيدى فإن اسمك سيوجد بعد ان تستقر خمسة جنيهات على الكاونتر وتتسرب إلى أحد الجيوب.

ولا أحدثك يا سيدى عن أسعار الغرف والوجبات، فهذه أنشودة أخرى، ولكنى أرجوك أن تراجع كل فاتورة تقدم إليك، فأنت لا بد واجد خطأ فى الحساب: الليالى الأربع تحسب خمسًا أو ستًا. وهناك وجبات لم تأكلها وكلتها محسوبة عليك، ومشروبات لم تذقها ولكنها فى قائمة حسابك.

ومن باب الفندق إلى أى مكان ستجد نفسك فى قبضة أولئك الناس: المشوار إلى الأهرامات يكلفك اليوم ثلاثين جنيها والسائق يأخذها ويشتمك. وأصحاب الجمال والخيل عند منطقة الهرم فتوات وبلطجية، يرغمونك على ركوب الجمل، وقد حكى لى صديق قصة سائح رآه محاطا باثنين أو ثلاثة من الجمالين يصرون على أن يركب الجمل بالقوة، والرجل بطبعه لا يحب الجمال فهو يصيح ويستغيث: أنا أكره الجمال - لا أريد الجمال! ولا فائدة، والشاويش من بعيد ينظر ويتفرج فهذه فرجة، ويسرع صديقى ويخلص السائح من أيدى الجلادين.

ولا تبحث قط عن دورة مياه أو مكان تغسل فيه يدك، وأنت محكوم عليك فى منطقة الأهرامات أن تظل مصلوبا طوال يومك، أما رجالك - رجال وزارة السياحة أقصد - فأنت لن تلقى منهم أحدًا، وإذا وجدت

كشكا عليه لافتة تقول: استعلامات فأنت لن تجد أحدًا قط، لأن موظفى وزارتك رجال يقومون بواجبهم حق القيام.

والقصة ياسيدى طويلة جدًا ومحزنة جدًا، فأنت ستجد نفس الشىء فى القطار إلى الأقصر، وإذا شئت الذهاب بالطائرة فإن آلامك ستزيد، وفى الأقصر سيرهقك أولئك الناس إرهاقا، وبعض شركات السياحة أقسى على السائحين من سائق التاكسى. وهناك مكتب لوزارة سيادتك فى الأقصر. ولكنك لن تجد أبدًا واحدًا من الموظفين العشرة المعينين عليه. ولن تجد طوال رحلتك نشرة سياحية ولا خريطة ولا أى معاونة، فأنت هنا فى مغامرة مخيفة، وسائق التاكسى يطلب من السائح خمسين جنيها لكى يذهب به إلى الأقصر والكرنك ويعيده إلى فندقه.

وتعود ياسيدى الوزير إلى القاهرة وأنت لا تصدق أنك عدت بالسلامة، وهنا يا سيدى تستطيع أن تتولى وزارة السياحة، فهذه القصة كاملة أمام عينيك، فى كل مكان يغطى ظلام قلوب المصريين المعاصرين على نور المصريين القدماء،ولم أر أمة كانت فى جاهليتها خيرًا مما أصبحت عليه بعد الجاهلية إلا مصر وأمم العروبة جميعًا.

* * *

ولكن الذى أخشاه هو أن السيد الوزير المقبل سيتحول بعد أن يدخل عالم الوزراء إلى واحد من سكان وادى الملوك، ونحن فى مصر نوعان، نوع يسكن وادى النيل وهم عامة الناس، أو ما نسميهم بالرعاع أو العامة من أمثالنا من العاملين المتعبين المحتسبين، ثم سكان وادى الملوك، وهم الأقوياء والناس العظام. والواحد منا يكون من سكان الوادى يعيش معنا فى أمان الله، فإذا مسته عصا الحكم وأضاءوا له النور

الأخضر واختفى وراء الأبواب الخضراء المزدوجة أصبح من سكان وادى الملوك. ووادى الملوك هو وادى الراحة. أنشأه أجدادنا الأماثل ليقضوا فيه فترة الانتظار بين الموت والعودة إلى الحياة، ولما كانوا واثقين من أنهم سيدخلون الجنة - لأنهم ملوك - فقد كانوا يجتهدون فى المحافظة على أجسادهم محفوظة محنطة، وكانوا يأخذون معهم الزاد والزواد حتى إذا تأذنت الآلهة وعادت الروح إلى الجسد نهض الواحد منهم سليمًا معافى، ونهض معه خدمه فأعدوا له طعامه وشرابه وحمامه وعطوره ليدخل دار الخلود فى أبهة كاملة، والشىء الطريف الذى نلاحظه أن أجدادنا كانوا فى أول الأمر يوسعون إلى جوارهم مكانًا فى قبورهم، حتى إذا حان حين الحرم المصون، رقدت إلى جانب زوجها حتى يبعثا معا ويواصلا حياتهما معًا، ثم سئموا ذلك وقالوا: إذا كان الإنسان يعيش مرتين فمن الأفضل أن تكون هناك زوجتان واحدة للأولى وواحدة للثانية ولهذا أنشئوا وادى الملكات.

وسكان وادى الملوك يختلفون اختلافًا تامًّا عن سكان وادى النيل، فما يكاد الواحد منهم يدخل واديهم حتى يتبدل خلقًا جديدًا، فلا يعود يتكلم لغتنا أو يرى الدنيا بعيوننا. وهو ينسى الآلام التى كان يعانيها معنا ويشكو منها. ويتعجب من شكوانا، ويتكلم بلغة الصفحة الأولى من الصحف القومية وهى صفحة وردية مشرقة كل مافيها جميل، على الصفحة الأولى رخاء وسعادة ووفرة وتيسير لكل عسير، وها هى ذى صحف صباح اليوم الذى أكتب فيه هذه السطور تعلن أن خطة قد وضعت ودخلت دور التنفيذ لحل كل مشاكل المرور: لا مطبات لا اختناقات ولا حفر، ولا نقر، ولا أرصفة تكسر الرقبة ولا طفح مياه يتخطى العتبة،وكل ذلك سينتهى فى القريب العاجل، والله سبحانه يحيينا ويحييك،

ووزارة المواصلات تعلن إنشاء ٧٠٠,٠٠٠ خط تليفونى جديد فى ثلاث سنوات، ولا أدرى لماذا لم يقولوا مثلا إنهم سينشئون ٢٣٠,٠٠٠ خط هذا العام. ويدعوا العام القادم للعام القادم، ولكن حكاية السنوات الثلاث أسهل، ويا عالم من منا يعيش؟ وهذا خبر عظيم يعدنا بالحد من الاستيراد وزيادة التصدير لمنع استنزاف الثروة القومية؛ ومحاربة الفساد والانحراف لتشارك الجماهير فى تنفيذ الخطة، وهاى ذى جريدة كبرى تعلن أنها بإذن الله ستطبع عن قريب بآلات عجيبة تطبع لا أدرى كم نسخة فى الثانية وستطبع الجريدة خالية من الأخطاء النحوية لأن الخليل بن أحمد وسيبويه والأخفش والزجاج كانوا أعضاء فى اللجنة التى وضعت مشروع المطابع الجديدة، وسيطبعونها بثمانية ألوان، والخبر نفسه فيه ثلاثة أخطاء أو أربعة أخطاء نحوية ومثلها من الأخطاء المطبعية. كأن شكوانا كانت من حروف الطباعة لا من المادة التى تتضمنها المقالات التى تطبع بها الحروف، وكأن متاعبنا ستخف إذا كانت متاعبنا بثمانية ألوان.

وأطرف أخبار الصفحة الأولى فى هذا اليوم خبر يقول: إنه لأول مرة فى تاريخنا الحديث تمثل القضية الاقتصادية محور اهتمام الحكومة، وهذا خبر لا يصدر إلا من أحد سكان وادى الملوك، فهؤلاء السادة لا يعلمون أن القضية الاقتصادية هى منذ خلقنا الله محور اهتمامنا وسبب بلاوينا وشكوانا نحن أهل الوادى السعيد.

وقد كان لنا فيما مضى صديق من أساتذة كلية الحقوق، وكان يركب الترام والأوتوبيس معنا، ويشاركنا الشكوى من الزمان وهموم الزمان، ثم أراد أحد رؤساء الأحزاب أن يجدد ويدخل عناصر جامعية فى وزارته،

فكان صاحبنا ممن فتحت لهم أبواب وادى الملوك، فدخل واقتعد كرسى الوزارة، وذهبنا نزوره ونهنئه فى مجلسه العالى وراء الباب الأخضر، وفى حديثه إلينا قال لنا: إن منصب الوزارة لا يعجبه لأنه تعب بلا جزاء، وقال: إن راتب الوزير (أيامها) لا يتعدى ١٦٢,٥ جنيه مصرى، فرثينا لحاله واقترح صديقنا صلاح ذهنى رحمه الله أن نفتتح فيما بيننا اكتتابًا لنعاونه به على تحمل مسئوليات الوزارة وتكاليفها.

وبعد شهور ياسيدى انتقل صاحبنا من بيته فى شبرا إلى فيلا عظيمة فى شارع الهرم، واقتنى سيارة خاصة، ثم زاره فى بيته صلاح ذهنى ورأى من فاخر الرياش وعجيب الأثاث ما طار له عقله، وكان رحمه الله صاحب نكتة ودعابة لاذعة فقال: ربما كان راتب الوزير كما قال أخونا ١٦٢,٥، ولكن ما خلف الراتب أعظم وهو والله ١٧٢٥ جنيها فى الشهر لا تنقص. وإلا فقولوا لى كيف يعيش الإنسان عيشة ملوك ويقتنى فيلا وسيارة ويصبح صاحب هيئة وأبهة ويسافر إلى أوروبا للاستجمام؟ وكل ذلك بمائة واثنين وستين جنيها وخمسمائة مليم فحسب؟

والذى غاب عنا يوم ذاك أن الناس إذا دخلوا وادى الملوك أصبحوا سكان عالم آخر أو كوكب آخر، وينتقلون من التعامل بالقروش إلى الجنيهات ثم عشراتها ومئاتها.

وقد كنا ونحن شباب نحسن الظن بالمستقبل ونقول: سيأتى اليوم الذى نكون فيه مثل إنجلترا مثلا: يصبح الواحد منهم وزيرا فلا ينقل إلى وادى الملوك، بل يظل فى وادى الناس. فإذا الأمر يتصاعد ويتزايد، وقد كنا لانرضى أن يقال: حضرة صاحب المعالى وزير المعارف، فأصبح الآن نصه: سيادة الدكتور وزير التربية والتعليم، والتعليم العالى، والبحث

العلمى، ونائب رئيس الوزراء لشئون الخدمات، وأمين عام مساعد الحزب الوطنى، ورئيس المجلس الأعلى للجامعات، والرئيس الأعلى لأكاديمية البحث العلمى إلى آخره.. إلى آخره.

وهذه ألقاب ياسيدى تذكرك بألقاب الملك السلطان الأشرف، العزيز، الكامل، الناصر، محمد بن السلطان المنصور قلاون الأشرفى العادلى المجاهد. الفارس البطل الهمام الضرغام سيف الإسلام.. إلى آخره.

وساعات العمل التى يستطيعها الإنسان عشر لا تزيد، فإذا قسمت أعمال السيد الوزير على ساعات عمله وجدت أنه بالضرورة لن يستطيع القيام بها حتى لو كانت ساعات العمل عشرين أو أربعا وعشرين، ولقد دخلت مرة مكتب وزير المالية مع سكرتيره فى غيابه، نبحث عن طلب كان لنا، فوجدت الطلبات والأوراق التى تنتظر إمضاء الوزير أكواماً وتلالاً، وشعرت بضيعة الأمل فقلت لصاحبى: دعك من هذا الطلب، لو أننا عمرنا عُمر نوح لما حصلنا على إمضاء هذا الوزير.

وقد انتهى عصر هذا الوزير، وجاء غيره والأوراق تتزايد، وكلها حبيسة الغرفة تنتظر الإمضاء فذكرنى هذا بحكاية وزير من وزراء الفاطميين، أراد أن يظهر بمظهر العادل، فكان يجعل فى آخر موكبه رجلاً يحمل سفطا يلقى الناس فيه شكاواهم لينظر فيها الوزير، فإذا وصل القصر دخل الوزير إلى غرفة الطعام، أما سفط الشكاوى، فكان الخادم يتجه به إلى المطبخ ويفرغه فى الفرن ليطبخ عليه طعام الوزير التقى الورع الفاضل الكامل عصمة الدنيا والدين وسيف مولانا أمير المؤمنين.

لا أحد يحب الروس ولا الأمريكيين

تحتاج إلى أن تنظر فى أطلس كبير جدًّا حتى تعثر على جزيرة جرينادا هذه التى شغلت الدنيا والناس الأسبوعين الماضيين، إنها واحدة من عشرات الجزر الصغيرة والكبيرة التى تمتد من جنوبى الطرف الشرقى لجزيرة كوبا حتى قرب سواحل فنزويلا، هذا القوس من الجزائر هو مدخل البحر الكاريبى، بحر العجائب والمغامرات والقرصان والعواصف، هذه الجزر كلها تسمى جزر الرياح (ايزلاس دل بينيتو أو الأنتيك)، بعضها معروف لنا مثل «جواد الوب والمارتنيك وبتاجوس وانتيجوا وبويرتريكو»، وبعضها مجهول لنا مثل «سانتالوثيا وغرناطة هذه».

الجزيرة كشفها كولومبوس فى رحلته الرابعة سنة ١٤٩٨. كشفها مع كثير غيرها قبل أن يعود إلى أسبانيا. ويلقى فى السجن بتهم بشعة منها السرقة وخيانة التاج الأسبانى، فى سنة ١٦٥٠ احتل الفرنسيون الجزيرة وأدخلوها ضمن أملاكهم الكاريبية، وأسكنوها عددا من السود جلبوهم من أفريقية عبيدًا لفلاحة الأرض، وفى سنة ١٧٨٤ انتزعتها إنجلترا من فرنسا وضمتها إلى دولتها الكبرى وأتت بسود آخرين، واستقر فى الجزيرة عشرات من المغامرين الأوروبيين، وفى ٧ فبراير ١٩٧٤ أصبحت

الجزيرة دولة مستقلة ذات سيادة، داخلة فى الكومانولث البريطانى وعضوا فى الأمم المتحدة، مساحتها حوالى ٢٥٠ كيلو مترًا مربعًا وسكانها ١١٠ آلاف، حاكم الجزيرة مندوب سام بريطانى يسمى جول سكون ممثل لإليزابيث الثانية ملكة بريطانيا، ولكن الجزيرة لها رئيس وزراء هو موريس بيشوب الذى قتل قبل الغزو الأمريكى الأخير.

موريس بيشوب كان شيوعيًا، وهو الذى فتح أبواب الجزيرة للروس والكوبيين، بعد أن قام لروسيا بكل ما طلبت منه ولم تعد بحاجة إليه فدبرت اغتياله بواسطة عدد من العسكريين الذين تعلموا فى روسيا وكوبا، هذا الانقلاب كان الخطوة الثانية نحو تحويل الجزيرة إلى حصن شيوعى على أبواب الكاربى مثلها فى ذلك مثل كوبا.

عيون الولايات المتحدة كانت ترقب التطور فى تلك الجزيرة بعينى الصقر، كانت تستعد لغزوها من أوائل ١٩٨٢، المندوب السامى البريطانى كان فى غفلة وتقاريره إلى الخارجية البريطانية لم يكن يقرؤها أحد.

عندما نزل الأمريكيون الجزيرة وجدوا فيها أضعاف ما توقعوه، الروس كانوا قد حولوا هذه الجزيرة إلى حصن، ولو تأخر الغزو الأمريكى لأصبحت غرناطة كوبا شيوعية جديدة: قواعد عسكرية ومطار ومخازن سلاح، ومخبأ للغواصات، ومحطات إرسال واستقبال. وأمريكا التى توقعت إخضاع الجزيرة فى بياض نهار، احتاجت إلى أسبوعين لتستولى على كل مراكز المقاومة.

الغزو الأمريكى تم بالاتفاق مع بريطانيا، ولكن النفاق الإنجليزى احتج على العدوان على عضو من أعضاء الكومانولث، ودول حلف الأطلسى احتجت احتجاجًا فاترًا، فى حين أن روسيا ودول حلف وارسو

يقيمون الدنيا ويقعدونها غضبًا لهذه الجزيرة الصغيرة التى راحت ضحية للاستعمار الرأسمالى، يدمرون أفغانستان ويفتكون بالأفغانيين، ثم يغضبون لجزيرة لم يصب فى غزوها أكثر من عشرين إنسانا، ثم إنهم هم أنفسهم خدعوا رئيسها، واستخدموه، ثم ذبحوه وساروا فى دمه بأقدامهم. وقبل ذلك وفى طرف آخر من أطراف هذه الدنيا يطلقون صاروخًا على طيارة مدنية فيحرقونها بمن فيها وما فيها.

ولماذا أسقطوا تلك الطائرة وأهلكوا ٢٦٩ آدميًّا معها؟

الجواب عند الولايات المتحدة.

فالذى لا شك فيه هو أن أولئك الأمريكيين كانوا قد وضعوا فى تلك الطائرة شيئًا يتجسسون به على الروس، والروس لابد قد عرفوا ذلك فراقبوا الطائرة، وعندما مرت فى مجالهم الجوى طلبوا منها أن تهبط، والطيار - لابد أنه كان صنيعة أمريكية أو ربما كان من المخابرات الأمريكية - عرف أنه لو هبط انكشف، وما كان يحسب أن روسيا ستضرب الضربة القاتلة، ولكن روسيا ضربت، إنها هنا تدافع عن إمبراطوريتها. وقامت قيامة الدنيا، ولكن روسيا لا تحفل بالدنيا أو بأهلها، إنها تدافع عن كيانها، و ٢٦٩ إنسانًا ماتوا وكأنهم ذباب ووضعوا فى أكفان الصراع العالمى.

ونحن - العرب - نعرف الانجلوسكسون جيدًا، ومن مائة سنة ونحن من ظلمهم ونفاقهم وإنسانيتهم وخداعهم فى شقاء، ونعرف أنهم قادرون على تعريض هذا العدد من الناس للموت إذا كان هذا - فى رأيهم - جزءًا من معركتهم للبقاء.

وإلا فإن الطائرات تعبر جو روسيا فى كل دقيقة من النهار والليل،

ولا يصاب شيء منها بأذى، فلماذا هذه بالذات أسقطت بالصواريخ؟

ونحن المصريين خاصة - نذكر أن طائرة ليبية كانت تحمل نحو مائتى مصرى برىء أسقطها الإسرائيليون على أرض سيناء لمجرد أنها أخطأت المسار أو حملتها رياح ظالمة، فدخلت جو سيناء المصرية أيام كان الإسرائيليون يحتلونها فكانت الكارثة، ويومها لم تغضب أمريكا ولا احتجت، وإنما راحت حيوات المصريين، ولم يتحرك لها ضمير إنسان لا فى أمريكا ولا فى إنجلترا أو أوروبا.

ونحن المصريين حزنًا على مصير رجال البحرية الأمريكية الذين ماتوا فى بيروت، وعلى الجنود الفرنسيين الذين ماتوا هناك، ولكننا نفهم أيضا لماذا ماتوا؟ ونسأل: ماذا يفعل الأمريكيون والفرنسيون فى لبنان؟ يقرون السلام؟ وأى سلام؟ إنه سلام إسرائيل، سلام ربع مليوم مارونى لبنانى يريدون أن يحكموا بالقوة والإرهاب بلدًا تسعون فى المائة من أهله مسلمون، ولكن فرنسا قررت ذلك قبل أن تخرج من لبنان، قررت أن يظل لبنان تابعا لفرنسا تحكمه باريس، وأمريكا اليوم تريد أن يحكم لبنان من واشنطون، ولهذا فكل المسلمين فى لبنان مجرمون ويساريون وضالون، وإذا كان هناك لبنانيون لهم الحق فى الكلام باسم لبنان فهم بيير الجميل وبشير الجميل، ثم أمين الجميل، كتائب فى كتائب. والذين يمثلون لبنان اليوم مع أمين الجميل هو سليم إلياس، وانطوان فتال وغسان توينى، قائد الجيش اللبنانى مارونى، وثلث الضباط موارنة، وثلثا الجنود سُنة مسلمون، ثم يريدون أن تستقر الأمور على ذلك، فإذا تحرك مسلم يعترض على ذلك - سنيا كان أو درزيا أو شيعيا - فهو خارج على القانون.

وأجهزة إعلامنا الذكية عندما تتحدث عن أولئك المسلمين لا تصفهم

إلا بأنهم يساريون أى شيوعيون، وأهل اليمين هم الكتائبيون ولا أحد غيرهم.

وفرنسا التى تقول إنها تسعى للسلام تبيع للعراق طائرات رهيبة لكى تحرق إيران، صاروخ واحد من صواريخ السوبر اتاندار أغرق بارجة بريطانية، فما بالك بما تفعله خمس طائرات تستطيع كل منها أن تدمر نصف مدينة إيرانية مثل همدان أو تبريز أو أصفهان.

نحن لا نرضى عن نظام الخمينى. لكن ولماذا نعاديه؟. لأنه نظام مستبد فيما نقول، ولكن أليست هذه مسألة إيرانية داخلية؟ إذا كان الخمينى ظالما فقد كان شاه إيران أشد ظلمًا واستبدادًا من نظام الخمينى، والخمينى لم يعتد على أرض عربية، ولكن شاه إيران اعتدى على ثلاث جزر عربية وانتزعها من أصحابها العرب، وإمارة عربية كاملة هى عربستان والمنتفق كل أهلها عرب انتزعها منا شاه إيران وأبوه، وعشرات الألوف من شباب إيران ماتوا فى سجون الشاه، ونحن لم نعاد الشاه ولا كرهناه ولا قاطعناه، لأن أمريكا كانت راضية عنه، ولكننا كرهنا الخمينى وقاطعناه ولعناه.

وكيف ستكون النتيجة فى النهاية؟

ستكون أن إيران إذا انسدت أمامها الأبواب فستلقى بنفسها فى أحضان روسيا، ويومها لن ينام عربى واحد آمنًا فى فراشه.

ولأن أمريكا تكره روسيا، فنحن نعادى روسيا ونقاطعها.

ولن تأمن دولة فى الدنيا على نفسها إذا هى عادت روسيا. وهيلموت شميت قال للسادات مرة: لا تسرف فى عداوة الروس، لا تقطع الحبل مع الروس لأنهم خطرون جدًا.

وعندما يتحدث هيلموت شميت عن روسيا فهو يعرف ما يقول، وإذا لم تعتد روسيا علينا عدوانًا صريحًا فخير لنا ألف مرة ألا نهيجها ضدنا، إن الدنيا كلها بما فيها الولايات المتحدة ورونالد ريجان وهنرى كيسنجر وكاسبار واينبرجر وكل إنسان له صوت فى أمريكا يرهبون روسيا.

لأن روسيا أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ، وربما كانت أغنى دولة على وجه الأرض، تحولت اليوم إلى حصن واحد مخيف حقًا، ومن المحيط الهادى إلى وسط أوروبا عند مجرى نهرى الأودار ونايسة قلعة حصينة، تستطيع أن تضع فى الميدان إذا أرادت ثلاثين مليون جندى يحمل كل منهم من السلاح ما يبيد به قرية كاملة.

وقوة الدبابات والمصفحات التى تملكها روسيا، تستطيع أن تجتاح أوروبا كلها فى ثلاثة أيام، ولديها من الطائرات قاذفات القنابل ما تستطيع به تدمير كل مدينة على الأرض فى مدى أسبوع، والقوة البحرية الروسية تزيد على البحريتين الأمريكية والإنجليزية مجتمعين.

* * *

وكل تلك القوة الهائلة تعيش تحت رهبة الخوف، والخوف فى ذاته سلاح رهيب، لأن الخائف إذا استبد به الخوف لم يبال بشىء أمامه، وخوف هتلر من روسيا جعله يهاجمها فى أغسطس ١٩٤٢، وعندما هاجم هتلر روسيا انتهى أمره، وعندما شرع فلاديمير اليانوفتش لينين بناء دولته الشيوعية، كان يظن أنه يبنى دولة البروليتاريا، أى دولة القوى العاملة، لقد كان لينين رجلاً مستبدًا طاغية، كان إنسانًا دمويًا عنيفًا، كله عقل ولا مكان للقلب فى كيانه، ولكى يقيم دولته الشيوعية قتل الملايين وأباد طبقات

كاملة من الناس، ولكنه لم يكن يحب العسكريين، وكان حذرًا جدًا فى بناء جيشه الأحمر.

وإلى قيام الحرب العالمية الثانية لم تكن روسيا تملك قوة عسكرية يحسب لها حساب، وعندما اقتحمت قوات «الفيرماخت» حدود روسيا بطول ٨٠٠ كيلو متر فى أغسطس ١٩٤٢، كان هتلر يقدر ثلاثة أسابيع لدخول موسكو وتوقيع معاهدة الاستسلام، ولكن قوات هتلر عندما وصلت نهر الفولجا، وأرادت عبوره عند ستالينجراد فتح عينيه على ما أذهله:

قوة الروس وتصميمهم الذى لا يوصف فى الدفاع عن أرضهم، وجيش الجنرال باولوس ظل يقاتل من منتصف شتاء ١٩٤٢، إلى آخر شتاء ١٩٤٣ حتى فنى معظمه، والجنرال باولوس نفسه استسلم ونفى إلى سيبيريا، وتلك كانت نقطة التحول فى تاريخ العصر.

منذ ذلك التاريخ بدأت روسيا تبنى قوتها العسكرية، وأربعون فى المائة من ثروة روسيا كلها تنفق فى الأغراض العسكرية، إلى أواخر حكم ستالين، كان الحزب البولشفيكى هو الحاكم فى روسيا، أيام مالكنوف وبعده خروشوف، بدأ صعود الجيش خلال حكم ليونيد بريجنيف والكسى كوسيجين انحسم الأمر وأصبح الجيش هو القوة الفعلية فى روسيا، ويورى اندروبوف رئيس روسيا يعتبر إلى حد ما رجل الجيش، أو الواجهة الحزبية للنظام العسكرى، فقد كان طوال خمس عشرة سنة مديرًا للمخابرات الروسية، أو ما يعرف باسم كا-جي-بى إنه أخطر سلاح مخابرات فى الدنيا، والسى آى إيه لا يساوى شيئًا أمام المخابرات الروسية.

لقد كان لينين وستالين من بعده يقولان: إن السيادة فى روسيا للحزب والعقيدة الشيوعية.

وماو تسي تونج قال مرة: إن الحزب يسيطر على البندقية، انتهى ذلك الآن وأصبحت روسيا دولة عسكرية أسبرطية، والعسكريون يمثلون أغلبية فى اللجنة السياسية المركزية، وكل تشكيلات الحزب و ٦٥ من جامعات روسيا تحت الإشراف المباشر للقوات المسلحة، والقيادة هى التى توجه الدراسة فيها بحسب ما يخدم الأغراض العسكرية.

وفى روسيا ٢٥ أكاديمية عسكرية وظيفتها تخريج الضباط والأخصائيين فى الفنون العسكرية، ولا يتخرج ضابط فى أى أكاديمية عسكرية وظيفتها تخريج الضباط إلا بعد خمس سنوات كاملة على الأقل، وفى كل أكاديمية معامل للتجارب والدراسات، والعلم الروسى كله موجه لخدمة الجيش.

وإذا أنت نظرت إلى الخريطة، تبينت أن روسيا ضحية مساحتها الشاسعة، وروسيا والبلاد الداخلة فى فلكها تمثل نصف العالم القديم، أى أفريقيا وآسيا وأوروبا، وكل متر على الحدود محروس حراسة بالغة الدقة، وكل متر داخل روسيا نفسها تحرسه بندقية أو مدفع، وشبكة رادار لا نظير لها تراقب كل متر على أرض روسيا وأوربا وآسيا، لأن روسيا تخشى الداخل كما تخشى الخارج، سادة الاتحاد السوفييتى لا يحتملون أى ملاحظة أو معارضة، وأى إنسان تصدر منه كلمة يراها سادة النظام غير متفقة مع سلامته يستبعد دون رحمة، وأقل ما ينتظره هو النفى إلى سيبيريا أو منغوليا، وسيبيريا لم تعد منفى واسعًا مخيفًا فحسب، بل تحولت إلى مصنع رهيب، والمنفيون لا يقضون مدة النفى يتنزهون بين الأشجار كما فعل لينين أثناء نفيه، بل لابد أن يعملوا فى المصانع أوالمزارع، وأحيانا يرسلون

إلى المناطق القطبية حيث يعملون فى السفن القطبية، ولا أحد يبكيهم فى حالة المرض أو الموت..

فى روسيا لا يهتمون كثيرًا بما يشغل بالنا نحن من العناية بما نسميه براحة المواطن أو رفاهيته، وليس فى روسيا شاب يتعلم مايريد بل ما تريد الدولة، وليس هناك مواطن روسى لا يقضى بين ثلاث وأربع ساعات فى اليوم فى طوابير الطعام أمام الجمعيات، والمواطن هناك لا يحصل إلا على الضرورى، والدولة هى التى تقرر حدود هذا الضرورى، وربات البيوت يقضين ساعات طويلة فى انتظار مائة جرام من الزبد أو اللحم، أو زوج من الثقانق أى السجق، وليس هناك شىء يسمى الذوق، أو المزاج، أو الكيف، لأنك تأخذ ما يعطونك إياه، فأنت لا تختار لون بذلتك مثلا، بل تأخذ ما تجده، ولابد أن تكون سعيدًا بما تحصل عليه مهما كان.

وتملك روسيا اليوم من الطائرات المتطورة، والغواصات النووية ضعف ما تملك الولايات المتحدة، وكمية المدافع والصواريخ التقليدية والنووية التى تملكها روسيا لا تصدق، وغواصات روسيا تجوب بحار الأرض جميعًا باحثة عن ملاجىء لها تستخدمها فى حالة الحرب، ولعلك سمعت عن الغواصات التى ضبطت فى مياه السويد والنرويج، ويمكن القول عمومًا أنه لا يوجد على سطح الأرض أو باطنها أو على المياه أو فى جوفها أو فى الفضاء الخارجى موضع لا يعرفه الروس معرفة تامة، وللروس مخازن أسلحة مخبأة فى مواضع من الكرة الأرضية لا تخطر على بال أحد.

وذلك كله لا يرجع فقط إلى الاستبداد، بل إن الروسى نفسه يشعر بالفخر لأن بلاده تملك تلك الأراضى الشاسعة، وتفرض على الأرض وما

فيها ومن فيها السلطان والخوف، والروسى يعبد بلاده عبادة، وهذا تحس به وأنت تقرأ كل كتاب روسيا وخاصة دستويفسكى، وتولستوى، وحتى سولسنيتسن، وشعب روسيا هو الذى حطم فى الحقيقة قوة النازية، لأن قوات ألمانيا عندما توقف تقدمها على ضفاف الفولجا، تولى المتطوعون لروس إبادة كل من وصلت إليه أيديهم من قوات ألمانيا ومنشآتها العسكرية، حتى داخل حدود ألمانيا الشرقية، وقد خسرت القوات المسلحة الروسية فى الحرب العالمية الثانية ثمانية ملايين عسكرى، ولكن الذين ماتوا فى حرب العصابات اثنا عشر مليونًا، ومعنى ذلك أن الروسى العادى لا يعانى اليوم مما نسميه نحن بالحرمان من أطايب العيش، أو الرفاهية لأن حبه لبلاده وفخره بها يغنيه عن ذلك كله.

وهذا كله ظاهر فيما يوفق إليه الشباب الروسى من انتصارات فى ميادين الرياضة العالمية، ولا نسبة إطلاقا بين عزيمة الشاب الرياضى المصرى فى التدريب واللعب وعزيمة الروسى: والرياضى الروسى يتدرب سبع ساعات على الأقل فى اليوم، و ليس هناك شاب رياضى روسى لا يحلم بتحطيم رقم قياسى عالمى، وهناك فتيات روسيات بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يعشن بحلم كسب ميدالية ذهبية لروسيا، والعمال فى المصانع ليسوا تعساء بالساعات الطويلة التى يقضونها فى المصانع، بل هم سعداء بذلك لأنه يسعدهم أن يروا بلادهم فى تلك المكانة الرفيعة، وهم على حق فى ذلك، فإن روسيا فى صدارة الدنيا فى كل ميدان، إنهم سادة الأرض والجو والفضاء، إنهم يقودون العلم والتكنولوجيا، وشبابهم يفوزون بالميداليات الذهبية، لقد أخذ النظام الشيوعى منهم كل شىء ولكنه أعطاهم كل شىء أيضًا، حقًا إن الفرد الروسى يخسر كثيرًا على المستوى الشخصى،ولكنه يكسب كثيرًا على المستوى القومى، إنه يخسر

لتكسب روسيا، وهذا فى ذاته شىء عظيم، قارن بذلك الأنظمة التى أخذت منا كل شىء وأعطتنا فى مقابل ذلك الهزيمة، حرموا المواطن المصرى من كل حق، ثم حرموا مصر من عزة النصر، وأقفلوا فى وجهها أبواب الأمل وشىء آخر يعزى الروسى فى متاعبه، إن الناس من حوله وفوقه فى البلاء والحرمان سواء، هناك فساد طبعًا ولكن فى حدود ضيقة جدًّا والمفسد عندما يكتشف أمره يبتر بترًا، ولا يجامل ولا يدلل، الذى يغيظك عندنا أنك تجد نفسك تشقى وتتعب وتحرم.

ومن حولك ناس يسعدون ويتنعمون دون أن يبذلوا جهدًا، أنت تزرع وهم يحصدون، أنت تدفع وهم ينفقون، وعندما ينكشف أمر واحد منهم، فإنه يعامل معاملة ملوك، والمتعوس يظل متعوسًا إلى الأبد، والسعيد عندنا يظل سعيدًا إلى الأبد.

وخلف القوة العسكرية الروسية تقف أشد أجهزة المخابرات فى الدنيا رهبة، وأوسعها ذكاء وأنشطها حركة، إنه جهاز الكا - جى - بى وهى اختصار لعبارة روسية معناها (لجنة أمن الدولة) العاملون فيه اليوم ٧٠٠,٠٠٠ إنسان منبثون فى كل ركن من أركان روسيا ونواحى العالم كلها بما فى ذلك فضاء الله بيننا وبين النجوم، ومبنى هذا الجهاز الذى يشير إليه الروس فى كلامهم باسم «الكومينيت»، يقع غير بعيد من الكرملين فى رقم ٢ ميدان درزنيسكى، إنه أضخم مبنى فى روسيا بعد الكرملين، الدنيا كلها تحت بصر هذا البيت وفى متناول يده، وفى أى مكان فى الدنيا لا تأمن أن يكون الجالس إلى جوارك من رجال. الكا. جى. بى. أو نسائه، إنه وريث فرق النشيكا، التى أنشأها لينين للقضاء على أعدائه وأباح لها دماء الناس، فى أيام ستالين وحكم الإرهاب، وأصبح الجهاز

يسمى جى. بى. أو، وكان رعبًا للناس داخل روسيا، وكل ما دخل تحت سلطانها من بلاد الدنيا، هنا كان يحكم بنفى بيريا الذى فاق هايزيخ هملر بمراحل، منذ تولى رياسة الجهاز يورى فلاديمير، وفتش اندروبوف (بالعربى جورجى ابن فلاديمير اندرويوف)، سنة ١٩٦٧ تطور النظام وتغير شكله وملابسه وأساليبه، ولكنه يظل جهازًا رهيبا للتجسس. وألوف من غير الروس يعملون فيه لأن المرتبات والأموال التى يعطيها لا حدود لها، ولا توجد قرية فى أوروبا وأمريكا وآسيا ليس فيها ممثل لذلك الجهاز، ومعلوماته فى غاية الدقة.

فى مواجهة الكا. جى. بى. يقف جهاز السى. آى. أيه. الأمريكى ويعمل فيه ١٣٠,٠٠٠ إنسان، يقولون إنه أمهر جواسيس الدنيا، ولكن الدلائل تقول إنه أخيب أجهزة المخابرات فى التاريخ، وهزائم أمريكا فى محاولة غزو كوبا فى خليج الخنازير أيام كنيدى، ومأساة محاولة إنقاذ الرهائن فى إيران أيام كارتر، وأخيرًا مأساة المعلومات الناقصة والخاطئة عما كان يجرى فى جزيرة غرناطة شواهد على ذلك.

* * *

ولكن الروس لا يخدمون إلا الروس، إنهم لا يحبون إلا أنفسهم، ونادرًا ما يحصل أحد منهم على شىء، وهذا ليس بجديد، ولكنه قديم منذ عرف الناس الروس، إنهم الشعب الوحيد فى العالم الذى يأخذ ولا يعطى، إذا حصل طالب من روسيا على منحة دراسية فهم يطلبون منه فى مقابل ذلك أن يهبهم حياته، لو دعاك روسى إلى كأس من الفودكا فى بيته، فتأكد أنه يريد منك أضعاف كأس السم هذا. عندما ساعدونا فى إقامة السد العالى أرادوا أن يستذلونا إلى الأبد، والسادات ما كان

ليكسب حرب أكتوبر لو لم يخرج الروس من مصر، ولكنه أخطأ عندما أصر على عداء الروس، ظن أن ذلك يقوى مركزه فى أمريكا، الأمريكيون ليسوا فى مجال السياسة أحسن من الروس، وأساس مأساة عبد الناصر هم الأمريكيون، وخلف معظم مآسينا تقف أمريكا. تكفينا بلوة إسرائيل، وهي اليوم بلوة أمريكية، عندما انتصرنا فى حرب أكتوبر، سارعت أمريكا تحاول حرماننا من ثمرة النصر، وكلنا نعرف ماذا حدث، والمشكلة أن الأمريكيين يبذلون أقصى ما يستطيعون لكي يحبهم الناس، إنهم مرضى بذلك، ولكنهم فى الحقيقة نادرًا ما يحبون أحدًا، ونادرًا كذلك أن يحبهم أحد، لا أحد يحب الدول الكبرى.

إذا كنت تريد أن تعرف الوجه الحقيقى لأمريكا فاذهب إلى أمريكا الوسطى والجنوبية، هناك لن تجد شجرة فاكهة إلا ملك أمريكى، كل خيرات الأرض هناك ملكا لأمريكا بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وما يدفع أهل السلفادور ونيكاراجوا إلى الثورة والحرب الأهلية، إلا ظلم الولايات المتحدة واستبدادها وجشع الرأسماليين الأمريكيين.

لا أحد يحب الروس، ولا أحد كذلك يحب الأمريكيين، وكل الحلول التى تتقدم بها الولايات المتحدة لمشاكل الدنيا لا تخدم إلا أمريكا، عندما تتدخل أمريكا فى شئون لبنان فتأكد أنها لا تخدم السلام، أو العرب، أو لبنان بل تخدم أمريكا، وسر قوة إسرائيل أنها عرفت أن تقنع أمريكا أن صالحهما واحد، وأن كل ما ينفع إسرائيل يخدم أمريكا، وكل قطعة سلاح توضع فى يد إسرائيل هى قوة لأمريكا. هذه كذبة ضخمة، ولكن أمريكا تصدقها، لأن مصلحتها فى أن تصدقها، وهذه مسألة أمريكية إسرائيلية لا دخل لنا فيها، ولكن علينا أن نضعها دائما نصب أعيننا.

* * *

إن روسيا تعيش فى ظل الخوف، إنها تملك أوسع مساحة تملكها دولة أخرى فى الأرض، وهذا بالذات سر خوفها، إنها تخشى تفكك هذه الدولة وضياعها. ولهذا فقط تحولت إلى معسكر وترسانة سلاح وصواريخ سام٣ أو٧ التى تقف فى مواجهة صواريخ بيرشينج وكروز، كلها أسلحة أو قل أدوية ضد الخوف لأن روسيا لاتنام، فإن احدًا فى الدنيا لا ينبغى أن ينام، ولأن الولايات المتحدة يجهدها الأرق فلابد أن تصاب الدنيا كلها بالأرق، وعيب الدول الكبرى أنها تريد أن تظل كبرى، وتزداد كبرًا مع الزمن، لهذا ينبغى أن تظل بقية دول الدنيا صغرى وتزداد صغرًا مع الزمن. إنها تعرف أيضا ألا شىء يدوم على حاله إلى الأبد، وأدولف هتلر أقام دولة لتحكم الدنيا ألف عام، فلم يدم لها السلطان والمجد إلا اثنى عشر عامًا، ونحن الدول التى أرادت لها تصاريف التاريخ أن تكون صغرى أو نصف صغرى ينبغى أن نعامل الدول الكبرى على أننا دول كبرى، حذار أن نتعامل مع الناس على أننا صغار.

جانب من مأساة لبنان يكمن فى أن لبنان الموارنة اعتبر نفسه دائمًا دولة صغرى تابعة لفرنسا، أو فى حماية أمريكا. وعاشت دهرًا على أموال العرب، وفى النهاية داسها الجميع.

* * *

لا أحد يحب الروس، ولا أحد كذلك يحب الأمريكيين، ولا أحد يحبنا أيضًا، لأن الحب مفهوم غير موجود فى عالم السياسة والمال، على هذا الخط ينبغى أن نتصرف، ونحن الآن نقف على أقدامنا بعد الدياسبورا الناصرية، ولكننا فى أول الطريق السليم وعلينا أن نستمر فيه وأملنا الأكبر هو الرئيس مبارك، والأموال الأمريكية التى تقدم لنا لا تخدمنا، بل تخدم أمريكا، وهذه حقيقة ينبغى أن تكون حلقًا فى آذاننا.

هكذا كان خلق الكعبة الشريفة قبل أن يخلق الله السموات والأرض

النص لأبي الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي

كان أبو حامد الغزالى إذا رفع رأسه من السجدة الأخيرة فى كل صلاة أطال القعود صامتا قبل التسليم فسئل فى ذلك فقال: لكى يطول أنسى بالله.

وهذه العبارة أرددها كلما فرغت من الطواف والسعى عند كل زيارة للحرم الشريف. فأنا أجلس على الدرج الرخامى، وأرسل بصرى فى ساحة الحرم، ويمتلىء قلبى خشوعا وأنا أتأمل الكعبة وأطيل النظر فى أعجب مشهد على سطح الأرض: مشهد دوران الطائفين حول الكعبة فى حركة لا تتوقف قط على مدار العام أبد الدهر، وأربعا وعشرين ساعة كل أربع وعشرين ساعة، يواصل المؤمنون طوافهم بالبيت العتيق، تذهب إلى الحرم فى أى ساعة: فى الصباح أو الظهر أو منتصف الليل أو قبيل الفجر، فترى الناس يطوفون كأنهم تيار ماء لا يتوقف، يذهب ناس ويأتى ناس من أركان الأرض الأربعة، وتحل جماعة منهم بعد جماعة، والطواف مستمر وأصوات التلبية تملأ سمعك، ويطول قعودى وتأملى،

ولكنى أشعر وأنا جالس هنا أنى آنس بحضرة الله سبحانه، فأنا هنا وقلبى هناك، وأنا هنا وعقلى مع أمة الإسلام فى كل مكان، وهذا الدوران جزء من حركة الكون: كما تدور الأرض حول نفسها، وكما تدور الأرض حول الشمس، وكما يدور الكون كله بعضه حول بعض، فى حركة دائرية أبدية قدرها بارئ الكون، يدور أولئك المؤمنون حول بيتهم العتيق حتى يطوى الله الأرض ومن عليها.

وإذا كانت الصلاة عبادة نجوى مع الله سبحانه وأنسًا به. فإن الحج والاعتمار والصلاة فى الحرم عبادات أنس بالله سبحانه وبالإسلام والمسلمين. فأنت منذ تهل بالحج أو العمرة لا تصبح أنت نفسك، إنما أنت واحد من ألوف كثيرة من المؤمنين يملئون الدنيا حولك: أنت فى بحر من الإيمان يبدأ من ساحل المحيط الهادى. وهؤلاء الناس من حولك أقبلوا من كل شبر من ذلك العالم الإسلامىّ الواسع، أقبلوا جميعا ليطوفوا ويسعوا ويلقوا بأنفسهم فى أمواج الإيمان، تحملهم فى مراحل المناسك، ولا أحد منهم يحس بنفسه أو يذكرها، فكلهم فى زى الإحرام، وكلهم يرفعون أصواتهم بالتكبير والتلبية.

وفى التاسع من ذى الحجة يتحرك موكب الإيمان هذا كله إلى عرفات: ألوف بعد ألوف تسير لتقف فى عرفات، هناك يصلون. الظهر والعصر جمع تقديم جماعة فوجًا بعد فوج وأصوات الخطباء لا تتوقف، والصلاة لا تنقطع والتكبير والتلبية متصلان، وينقضى الوقت إلى المغرب وأنت لا تشعر، وتصلى المغرب والعشاء جمع تأخير فى مزدلفة بعد وصولك إليها مع الناس وهذا هو النفر وأنت تستقر فى مزدلفة ولكن غيرك ينطلق إلى منى ليجمع الجمرات، وتقضى الليل فى منى وأنت لا تدرى كيف قضيته.

لأن صلاة الناس وأصواتهم من حولك لا تنقطع، ولا أشعر برغبة فى طعام، ولا أنا أحمل فى الحج كله طعامًا لأننى أعيش فعلاً على زاد الإيمان، وليس معى إلا ماء معدنى فى جراب معلق بعاتقى، فأنا أشرب ولا أطعم.

ويقبل فجر العاشر من ذى الحجة: فجر يوم العيد ويوم الأضحى ويوم النحر، فى هذا الوقت يحتفل عالم الإسلام كله بعيد الحج وينتقل بروحه إلى هذا الموقف العظيم، ويطير بى خيالى إلى قريتى فأرى الناس يصلون العيد ثم ينحرون، وأولادهم يزاطون ويضحكون ويتطايرون إلى البيوت فى انتظار إفطار يوم العيد، ولكنك هنا لا تنحر إلا بعد أن تذهب إلى مكة وتطوف طواف الإفاضة، وتعود إلى منى لتقرب إلى الله ما تيسر لك فى المنحر. وكل منى منحر، وكل مكة منحر، وأجلس وأشم رائحة من اللحم وأخرج من جرابى فنجانا آخذ فيه شيئًا من المرق وطبعا يضعون فيه بضعة من اللحم وأشرب وآكل كما فعل رسول الله ﷺ فى حجة الوداع.

وأنظر فى ساعتى فإذا هى قبل الثامنة صباحًا. كل هذا تم فى غبش الصبح المشرق، وتنقضى أيام منى ورمى الجمرات مرة بعد أخرى، ونعود إلى مكة فأطوف طواف الوداع وألتمس موضعى من الدرج وأجلس وأرسل بصرى مع سيل الطائفين الذى لا ينقطع.

* * *

هذه العبادة الرفيعة التى يطول فيها أنسك بالله وعباد الله المؤمنين بدأت على هذا النحو المحكم مع رسول الله فى حجة الوداع فى ختام العام العاشر للهجرة، ما كان أحد يدرى يومها أنه لم تبق لرسول الله على هذه الأرض من أيام الدنيا إلا ثلاثة شهور تزيد قليلاً، أو تنقص يسيرًا، ولكن

حركة الطواف ومواسم الحج ستتصل ما شاء بارئ الكون سبحانه علام الغيوب..

ولكن إيمان المسلمين الدافق يأبى أن يقبل أن الحج إلى هذا البيت الشريف بدأ مع الإسلام، بل بدأ مع خلق الله الأرض ومن عليها. وأبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى مؤرخ مكة يجمع لنا فى فاتحة كتابه المبدع: «أخبار مكة» كل ما صاغته أخيلة المسلمين من أخبار خلق الكعبة، ووضع هذا البيت المكرم فى هذه البقعة الشريفة من الأرض لتكون حمى للحجر الشريف، الذى كان عندما أهبطه الله إلى الأرض متلألئا ناصع البياض، والحكايات هنا أدب شعبى صاغه الإيمان، وأرسله الرواة منسوبًا إلى كعب الأحبار حينًا، وإلى ابن عباس حينًا، ونحن نقرؤه فتخشع قلوبنا، ونشعر بالعجب من ترامى خيال المسلمين. فقد أنشأ هذا الخيال الصور الجميلة التى سنقرؤها بنصها فى هذه الصفحة وما يليها بأشكالها وألوانها وحركاتها وموسيقاها، فإن كنت شاعرًا فهذه صور شعرية لو كان شعراء العرب وعوها لصاغوا لنا منها أعجب الشعر، وهنا ألوان وصور وأشكال وأضواء لو قرأها ليوناردو أورافاييلو، لأخرجا منها لوحات هى السحر بعينه، ولكننا معاشر العرب والمسلمين نستلهم بيكاسو وسلفادور دالى ولا نستلهم أصولنا، ونطوف الأرض باحثين عن موضوعات لوحات فلا نجد إلا بشاعات، فهذا يا أهل الفن والإيمان مجالكم بلا حدود فانطلقوا فيه، ولقد أنشأ بيتهوفن بعيدًا عن مهد المسيح واحدة من أروع مقطعاته هى الصلاة الخاشعة Misa Solemnis ولو كنت من أصحاب النغم، لخرجت من هذه الصفحات بشىء أسميه الصلاة المحمدية Misa Muhammedamis أو الصلاة الإسلامية Misa Eslamica.

ونص أبي الوليد الأزرقى هنا مرسل كما هو بأسانيده، وقد جعلنا الأسانيد بالحرف الصغير، فلعل القارىء لا يحتاج إلى قراءتها. وجعلنا بقية الأخبار والصور بالحرف الكبير، فهو الذى نرجو أن يقرأه القارىء الكريم ويجد فيه مواضع الإلهام.

وصلى الله على سيد الأمة محمد نبى الرحمة وآله وصحبه
«ذكر ما كانت الكعبة الشريفة عليه فوق الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض وماجاء فى ذلك»

قال أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقى، قال حدثنا سفيان بن عيينة عن بشر بن عاصم عن سعيد بن المسيب، قال: قال كعب الأحبار: كانت الكعبة غثاء على الماء قبل أن يخلق الله عز وجل السموات والأرض بأربعين سنة ومنها دحيت الأرض.

قال حدثنا أبوالوليد، قال حدثنى مهدى بن أبى المهدى، قال حدثنا أبو أيوب البصرى عن هشام عن حميد قال: سمعت مجاهدا يقول: خلق الله عز وجل هذا البيت قبل أن يخلق شيئًا من الأرضين.

قال حدثنا أبو الوليد قال حدثنا جدى عن سعيد بن سلام عن طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس أنه قال:

لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السموات والأرض، بعث الله تعالى ريحًا هفافة فصفقت الماء، فأبرزت عن خشفة فى موضع هذا البيت، كأنها قبة، فدحا الله الأرضين من تحتها فمادت ثم مادت، فأوتدها الله تعالى بالجبال، فكان أول جبل وضع فيها أبو قبيس، فذلك سميت مكة أم القرى.

قال وحدثني يحيى بن سعيد، عن محمد بن عمر بن إبراهيم الجبيري، عن عثمان بن عبد الرحمن، عن هشام عن مجاهد قال:

لقد خلق الله عز وجل موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئًا من الأرض بألفي سنة، وإن قواعده لفي الأرض السابعة السفلى.

ذكر بناء الملائكة الكعبة قبل خلق آدم ومبتدأ الطواف كيف كان

حدثنا أبو الوليد، قال: حدثني على بن هارون بن مسلم العجلى عن أبيه، قال: حدثنا القاسم بن عبد الرحمن الأنصارى، قال: حدثنى محمد بن على بن الحسين. قال: كنت مع أبى على بن الحسين بمكة، فبينما هو يطوف بالبيت وأنا وراءه إذ جاءه رجل شرجع من الرجال يقول: طويل، فوضع يده على ظهر أبى فالتفت أبى إليه فقال الرجل: السلام عليك يا ابن بنت رسول الله إنى أريد أن أسألك، فسكت أبى وأنا والرجل خلفه، حتى فرغ من أسبوعه أى طوافه حول الكعبة سبع مرات، فدخل الحِجْر، فقام تحت الميزاب، فقمت أنا والرجل خلفه فصلى ركعتى أسبوعه، ثم استوى قاعدًا فالتفت إلى فقمت فجلست إلى جنبه فقال يا لله حمد فأين هذا السائل؟ فأومات إلى الرجل، فجاء فجلس بين يدى أبى، فقال له أبى: عَمَّ تسأل؟ قال أسألك عن بدء هذا الطواف بهذا البيت، لم كان؟ وأنى كان؟ وحيث كان؟ وكيف كان؟ فقال له أبى نعم من أين أنت؟ قال من أهل الشام قال: أين مسكنك؟ قال: فى بيت المقدس، قال: فهل قرأت الكتابين؟ - يعنى التوراة والإنجيل - قال الرجل نعم، قال أبى: يا أخا أهل الشام احفظ ولا تروين عنى إلا حقًا، أما بدء هذا الطواف بهذا البيت فإن الله تبارك وتعالى قال للملائكة: إنى جاعل فى

الأرض خليفة، فقالت الملائكة أى رب أخليفة من غيرنا ممن يفسد فيها ويسفك الدماء ويتحاسدون، ويتباغضون ويتباغون؟ أى رب اجعل ذلك الخليفة منا فنحن لانفسد فيها. ولا نسفك الدماء، ولا نتباغض، ولا نتحاسد، ولا نتباغى، ونحن نسبح بحمدك، ونقدس لك، ونطيعك، ولا نعصيك، فقال الله تعالى إنى أعلم ما لا تعلمون، قال: فظنت الملائكة أن ما قالوا ردًا على ربهم عز وجل، وإنه قد غضب من قولهم فلاذوا بالعرش، ورفعوا رءوسهم، وأشاروا بالأصابع يتضرعون ويبكون، إشفاقًا لغضبه وطافوا بالعرش ثلاث ساعات، فنظر الله إليهم فنزلت الرحمة عليهم، فوضع الله تعالى تحت العرش بيتا على أربع أساطين من زبرجد، وغشاهن بياقوتة حمراء، وسمى ذلك البيت الضراح، ثم قال الله تعالى للملائكة، طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش، قال فطافت الملائكة بالبيت وتركوا العرش، وصار أهون عليهم من العرش وهو البيت المعمور، الذى ذكره الله عز وجل، يدخله فى كل يوم وليلة سبعون ألف ملك لا يعودون فيه أبدًا.

ثم إن الله سبحانه وتعالى بعث ملائكة فقال لهم ابنوا لى بيتا فى الأرض بمثاله وقدره، فأمر الله سبحانه من فى الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور.

فقال الرجل صدقت يابن بنت رسول الله ﷺ هكذا كان.

ذكر زيارة الملائكة
البيت الحرام بمكة شرفها الله

حدثنا أبو الوليد، قال: حدثنى مهدى بن أبى المهدى قال: حدثنا عبد الرزاق قال: حدثنا عمر بن بكار عن وهب بن منبه عن ابن عباس.

أن جبريل عليه السلام وقف على رسول الله ﷺ وعليه عصابة حمراء، قد علاها الغبار، فقال له رسول الله ﷺ : ما هذا الغبار أرى على عصابتك أيها الروح الأمين؟ قال: إنى زرت البيت فازدحمت الملائكة على الركن، فهذا الغبار الذى ترى مما تثير بأجنحتها.

وأخبرنى جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال: أخبرنى عثمان بن يسار قال: بلغنى والله أعلم أن الله تعالى إذا أراد أن يبعث ملكًا من الملائكة لبعض أموره فى الأرض أستأذنه ذلك الملك فى الطواف بالبيت فهبط الملك مُهلاً.

وأخبرنى جدى، عن سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه، نحو هذا إلا أنه قال: ويصلى فى البيت ركعتين.

وأخبرنى جدى، عن سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج قال: أخبرنى عباد بن كثير عن ليث بن معاذ قال: قال رسول ﷺ : هذا البيت خامس خمسة عشر بيتا، سبعة منها فى السماء إلى العرش، وسبعة منها إلى تخوم الأرض السفلى، وأعلاها الذى يلى العرش. البيت المعمور، لكل بيت منها حرم كحرم هذا البيت، لو سقط منها بيت لسقط بعضها على بعض إلى تخوم الأرض السفلى، ولكل بيت من أهل السماء ومن أهل الأرض من يعمُرهُ كما يعُمّر هذا البيت.

ذكر هبوط آدم إلى الأرض وبنائه الكعبة، وحجه، وطوافه بالبيت

حدثنا أبو الوليد، حدثنا جدى قال: حدثنا سعيد بن سالم، عن طلحة بن عمرو الحضرمى، عن عطاء بن أبى رياح عن ابن عباس، قال: لما

أهبط الله آدم إلى الأرض من الجنة كان رأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض، وهو مثل الفلك من رعدته قال: فطأطأ الله عز وجل منه إلى ستين ذراعًا، فقال: يا رب ما لى، لا أسمع أصوات الملائكة ولا أحسهم؟ قال: خطيئتك يا آدم، ولكن اذهب فابن لى بيتًا فطف به واذكرنى حوله، كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى، قال: فأقبل آدم عليه السلام يتخطى، فطويت له الأرض وقبضت له المفاوز، فصارت كل مفازة يمر بها خطوة، وقبض له ما كان من مخاض ماء أو بحر، فجعل له خطوة ولم تقع قدمه فى شيء من الأرض إلا صار عمرانًا وبركة، حتى انتهى إلى مكة فبنى البيت الحرام، وأن جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الأرض، فأبرز عن أسٍّ ثابت على الأرض السفلى، فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حمل الصخرة منها ثلاثون رجلًا، وأنه بناه من خمسة أجبل من لبنان، وطور سيناء والجودى، وحراء، حتى استوى على وجه الأرض.

قال ابن عباس: فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به آدم عليه السلام، حتى بعث الله الطوفان قال: وكان غضبًا ورجسًا قال: فحيث ما انتهى الطوفان ذهب ريح آدم عليه السلام.

قال ولم يقرب الطوفان أرض السند والهند قال:

فدرس موضع البيت فى الطوفان حتى بعث الله تعالى إبراهيم وإسماعيل، فرفعا قواعده وأعلامه. وبنته قريش بعد ذلك وهو بحذاء البيت المعمور لو سقط ما سقط إلا عليه.

حدثنا أبو الوليد حدثنا مهدى بن أبى المهدى قال حدثنا إسماعيل بن عبدالكريم الصنعانى عن عبدالصمد بن معقل عن وهب بن منبه قال: إن الله تعالى لما تاب على آدم عليه السلام أمر أن يسير إلى مكة فطوى له

الأرض، وقبض له المفاوز فصار كل مفازة يمر بهـا خطوة، وقبض لـه ما كان فيها من مخاض ماء أو بحر فجعله له خطوة، فلم يضع قدمه فى شىء من الأرض إلا صار عمرانًا وبركة حتى انتهى إلى مكة.

وكان قبل ذلك قد اشتد بكاؤه حزنه لما كان فيه من عظم المصيبة، حتى إن كانت الملائكة لتحزن لحزنه ولتبكي لبكائه، فعزاه الله تعالى بخيمة من خيام الجنة ووضعها له بمكة فى موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة، وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من يواقيت الجنة فيها ثلاثة قناديل من ذهب من تبر الجنة، فيها نور يلتهب من نور الجنة، ونزل معها الركن وهو يومئذ ياقوتة بيضاء من ربض الجنة، وكان كرسيًا لآدم عليه السلام يجلس عليه.

فلما صار آدم عليه بمكة وحرس الله له تلك الخيمة بالملائكة، كانوا يحرسونها ويذودون عنها ساكن الأرض، وساكنها يومئذ الجن والشياطين فلا ينبغى لهم أن ينظروا إلى شىء من الجنة، لأنه من نظر إلى شىء من الجنة وجبت له، والأرض يومئذ طاهرة نقية لم تنجس، ولم تسفك فيها الدماء، ولم يعمل فيها بالخطايا، فلذلك جعلها الله مسكن الملائكة وجعلهم فيها كما كانوا فى السماء يسبحون الله الليل والنهار لا يفترون.

وكانٍ وقوفهم على أعلام الحرم صفًا واحدًا مستديرين بالحرم الشريف كله، الحِل من خلفهم والحرم كله من أمامهم فلا يجوزهم جن ولا شيطان.

ومن أجل مقام الملائكة حُرِّم الحرم حتى اليوم، ووضعت أعلامه حيث كان مقام الملائكة، وحرم الله عز وجل على حواء دخول الحرم، والنظر إلى خيمة آدم عليه السلام من أجل خطيئتها التى أخطأت فى الجنة. فلم تنظر إلى شىء من ذلك حتى قبضت.

وإن آدم عليه السلام كان إذا أراد لقاءها ليلم بها للولد خرج من الحرم كله حتى يلقاها.

فلم تزل خيمة آدم عليه السلام مكانها حتى قبض الله آدم ورفعها الله تعالى.

وبنى بنو آدم بها من بعده مكانها بيتا بالطين والحجارة، فلم يزل معمورًا يعمرونه هم ومَنْ بعدهم حتى كان زمن نوح عليه السلام فنسفه الغرق وخفى مكانه.

فلما بعث الله تعالى إبراهيم خليله عليه السلام طلب الأساس، فلما وصل إليه ظلل الله تعالى له مكان البيت بغمامة فكانت حِفافُ البيت الأول ثم لم تزل راكدة على حِفافه تُظِل إبراهيم، وتهديه مكان القواعد حتى رفع الله القواعد قامة، ثم انكشفت الغمامة فذلك قول الله عز وجل: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ أى الغمامة التى ركدت على الحِفاف لتهديه مكان القواعد.

فلم يزل بحمد الله منذ رفعه الله معمورًا.

قال وهب بن منبه: وقرأت فى كتاب من الكتب الأولى ذكر فيه أمر الكعبة، فوجد فيه أن ليس من ملك من الملائكة بعثه الله تعالى إلى الأرض إلا أمره بزيارة البيت فينقض من عند العرش محرمًا ملبيًا حتى يستلم الحجر ثم يطوف سبعًا بالبيت ويركع فى جوفه ركعتين ثم يصعد.

وحدثنى محمد بن يحيى، عن إبراهيم بن محمد بن أبى يحيى، عن عبد الله بن لبيد، قال: بلغنى أن ابن عباس قال: لما أهْبط الله سبحانه آدم عليه السلام إلى الأرض أهبطه إلى موضع البيت الحرام، وهو مثل الفلك من رعدته، ثم أنزل عليه الحجر الأسود – يعنى الركن – وهو

يتلألأ من شدة بياضه. فأخذه آدم عليه السلام، فضمه إليه أُنسًا به ثم نزلت عليه العصا، فقيل له: تخط يا آدم فتخطى فإذا هو بأرض الهند والسند، فمكث بذلك ما شاء الله ثم استوحش إلى الركن فقيل له: احجج. قال: فحج فلقيته الملائكة فقالوا: بَرَّ حجك يا آدم! لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام!

وحدثنى جدى، قال: حدثنا سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج، قال: أخبرنى محمد بن إسحاق قال: بلغنى أن آدم عليه السلام لما أُهْبط إلى الأرض حزن على ما فاته مما كان يرى ويسمع فى الجنة من عبادة الله، فبوأ الله له البيت الحرام وأمره بالسير إليه. فسار إليه لاينزل منزلا إلا فجر الله له ماء معينًا حتى انتهى إلى مكة فأقام بها يعبد الله عند ذلك البيت ويطوف به، فلم تزل داره حتى قبضه الله بها.

حدثنى جدى قال: حدثنى سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج قال: بلغنى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لكعب: يا كعب أخبرنى عن البيت الحرام. قال كعب: أنزله الله تعالى من السماء ياقوتة مجوفة مع آدم عليه السلام فقال له: يا آدم إن هذا بيتى أنزلته معك يطاف حوله كما يطاف حول عرشى، ويصلى حوله كما يصلى حول عرشى، ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة ثم وضع البيت عليه، فكان آدم عليه السلام يطوف حوله كما يطاف حول العرش، ويصلى عنده كما يصلى عند العرش، فلما أغرق الله قوم نوح رفعه الله إلى السماء وبقيت قواعده.

وحدثنى جدى قال: وحدثنى إبراهيم بن محمد بن أبى يحيى، عن الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس

رضوان الله عليه قال: كان آدم عليه السلام أول من أسس البيت وصلى فيه حتى بعث الله الطوفان.

حدثنا مهدى ابن أبي المهدى، قال: حدثنا عبد الله بن معاذ الصنعانى، عن معمر عن أبان أن البيت أهبط ياقوتة لآدم عليه السلام أو درة واحدة.

وحدثني جدى قال: كان البيت الذى بوأه الله تعالى لآدم عليه السلام يومئذ ياقوتة من يواقيت الجنة حمراء تلتهب، لها بابان أحدهما شرقى، والآخر غربي، وكان فيه قناديل من نور آنيتها ذهب من تبر الجنة وهو منظوم بنجوم من ياقوت أبيض، والركن يومئذ نجم من نجومه وهو يومئذ ياقوتة بيضاء.

حدثنا جدى قال: حدثنى إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى، قال: حدثنا المغيرة بن زياد عن عطاء بن أبي رياح قال: لما بنى ابن الزبير الكعبة أمر العمال أن يبلغوا فى الأرض، فبلغوا صخرًا أمثال الإبل الخلف قال فقالوا: إنا قد بلغنا صخرًا أمثال الابل الخلف قال: قال: زيدوا فاحفروا فلما زادوا بلغوا هواء من نار يلقاهم فقال: ما لكم؟ قالوا: لسنا نستطيع أن نزيد، رأينا أمرًا عظيما فلا نستطيع، فقال لهم: ابنوا عليه، قال فسمعت عطاء يقول: يرون أن ذلك الصخر مما بنى آدم عليه السلام.

وحدثني جدى، عن سعيد بن سالم، عن عثمان بن ساج، عن الزهرى عن عبيد الله بن عتبة، عن ابن عباس عليه السلام: خر آدم ساجدًا يبكى فهتف به هاتف فقال: ما يبكيك يا آدم؟ قال أبكانى أنه حيل بينى وبين تسبيح ملائكتك، وتقديس قدسك، قيل له: يا آدم قم إلى البيت الحرام، فخرج إلى مكة فكان حيث يضع قدميه يفجر عيونًا وعمرانًا،

ومداين ومصابين قدميه الخراب والمعاطش فبلغني أن آدم عليه السلام تذكر الجنة فبكى، فلو عدل بكاء الخلق ببكاء آدم حين أخرج من الجنة ما عدله، ولو عدل بكاء الخلق وبكاء آدم عليه السلام ببكاء داود حين أصاب الخطيئة ما عدله.

حدثني جدى قال: أخبرنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج عن وهب بن منبه:

أن آدم عليه السلام اشتد بكاؤه وحزنه لما كان من عظم المصيبة، حتى إن كانت الملائكة لتحزن لحزنه، ولتبكي لبكائه قال: فعزاه الله بخيمة من خيام الجنة وضعها له بمكة فى موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة، وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من ياقوت الجنة وفيها ثلاثة قناديل من ذهب من تبر الجنة، فيها نور يلتهب من نور الجنة. فلما صار آدم عليه السلام إلى مكة وحرس له تلك الخيمة بالملائكة فكانوا يحرسونه ويذودون عنها سكان الأرض، وسكانها يومئذ الجن والشياطين، ولا ينبغى لهم أن ينظروا إلى شيء من الجنة، لأنه من نظر إلى شيء منها وجبت له، والأرض يومئذ نقية طاهرة طيبة لم تنجس ولم تسفك فيها الدماء، ولم يعمل فيها بالخطايا فلذلك جعلها الله يومئذ مستقر الملائكة، وجعلهم فيها كما كانوا فى السماء يسبحون الليل والنهار لا يفترون، قال: فلم تزل تلك الخيمة مكانها حتى قبض الله آدم عليه السلام ثم رفعها إليه.

حدثني مهدى بن أبي المهدى، عن عبد الله بن معاذ الصنعانى، عن معمر، عن قتادة فى قوله عز وجل ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ قال: وضع الله تعالى البيت مع آدم عليه السلام، فأهبط الله تعالى آدم إلى الأرض، وكان مهبطه بأرض الهند، وكان رأسه فى السماء ورجلاه فى

الأرض،وكانت الملائكة تهابه فقبض إلى ستين ذراعا فحزن آدم عليه السلام إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم، فشكا ذلك إلى الله تعالى فقال الله تعالى يا آدم إنى أهبطت معك بيتا يطاف حوله كما يطاف حول عرشي فانطلق إليه فخرج آدم عليه السلام ومد له فى خطوه فكان خطوتان أو بين خطوتين مفازة فلم يزل على ذلك، فأتى آدم عليه السلام البيت فطاف به، ومن بعده من الأنبياء.

حدثنى محمد بن يحيى، عن عبد العزيز بن عمران، عن عمر بن أبى معروف، عن عبد الله بن أبى زياد أنه قال: لما أهبط الله تعالى آدم عليه السلام من الجنة قال: يا آدم ابن لى بيتًا بحذاء بيتى الذى فى السماء تتعبد فيه أنت وولدك، كما تتعبد ملائكتى حول عرشي. فهبطت عليه الملائكة فحفر حتى بلغ الأرض السابعة فقذفت فيه الملائكة الصخر حتى أشرف على وجه الأرض وهبط آدم عليه السلام بياقوتة حمراء مجوفة لها أربعة أركان بيض فوضعها على الأساس فلم تزل الياقوتة كذلك حتى كان زمن الغرق فرفعها الله سبحانه وتعالى.

كل الطواويس
أيديها فى الماء

لا على رجليك أنت آمن مرتاح، ولا فى السيارة أنت آمن مرتاح، وليس أمامك إلا طريق الآلام هذا، تسير فيه راضيًا أم غاضبًا على رغمك، لابد أن تسير فيه حافيًا حاملاً همومك فوق رأسك وكتفيك، قدر مكتوب على جبينك وعلى كل جارحة من جوارحك، ولا فرار من القدر المكتوب، وحكم صادر عليك قبل أن توجد، ولا استئناف أمامك ولا نقض، وليس هناك إلا التنفيذ، ما دمت قد ولدت هنا فلابد أن تدفع الثمن، لابد أن تؤديه من لحمك وعظمك ودمك وأعصابك، ولابد أن تبتسم إلى جانب ذلك وتقول إنك سعيد، عزاؤك الوحيد أننا كلنا مثلك فى نفس الطريق، سنظل جميعًا هكذا نجر أقدامنا ما بقى لكل منا من أيام العمر، وهناك بعد منحنى الطريق وخلف الصخور ينتظرك باب الراحة، راحة الأبد، هناك تنام وتتمدد وتأمن، فلن يستطيع أحد أن يؤذيك، ومن بعيد سيترامى إلى سمعك صوت الملقن يقول لك فى صوت قوى خاشع: «يا عبدالله»، هذا آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة»..

وإلى أن يجيء هذا اليوم الموعود لا تؤمل فى أن يأتيك فرج، هذا قضاء

الله فيك ولا معقب، لا تفكر فى الشكوى، لأن الذى ستشكو له هو جلادك، ولا تلتفت حولك لأن كل الذين يحيطون بك فى مثل حالك، هنا لا يوجد إلا تعيس وأتعس والأتعس، الماشى منهم تعبان، والراكب هلكان، وغارات عادم السيارات توزع الموت على الجميع بالقسطاس، الماشى منهم يبحث عن مأوى يريح عظامه فيه، والراكب هارب من القانون والعدالة، وهارب منك أيضا يبحث عن حصن يحتمى وراء جدرانه، ليوزع فيه المسروق والمنهوب على امرأته وأولاده، ليجلس بعد ذلك أمام القضاء ساخرًا ضاحكًا، يسب اللصوص ويستنزل اللعنات على قطاع الطرق، ويخرج بعد ذلك بحكم لطيف كأنه نسمات ليلة ربيع: التحفظ عليه سنة والحفاظ على مسروقاته آمنة حتى يصدر القضاء حكمه فيها بعد خمسين سنة إن شاء الله، وبعد خمسين سنة لن يكون أحد منا ها هنا، سيكون هناك ناس جدد ولدوا يوم القيامة وتخرجوا فى الجامعة بعد القيامة، وهؤلاء سيقيمون تمثالاً للبطل الذى داس على كل شىء فى هذا البلد، واستحق بذلك أن يكون بطل الأبطال، وسيقف خطيب بليغ ويقول: اهتفوا معى للبطل الذى غير خريطة مصر وعلمكم بأستاذية بالغة معنى الخوف والذل والجوع..

* * *

أفكار سوداء، وأخرى رمادية، وثالثة بلا لون، طافت كلها بخيالى المجهد وأنا أصلب قوامى المتهالك فى انتظار سيارة أجرة، أو حتى سيارة موتى تحملنى إلى بيتى، والوقت بعد الظهر والمكان شارع بولاق أو شارع فؤاد أو شارع ٢٦ يوليو. «إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان» لأن الاسم الوحيد الذى ينطبق على حقيقة

هذا الشارع هو شارع العذاب، وقفت أسند نفسي إلى سيارة نصف نقل تركها سائقها على الرصيف ومضى إلى أى داهية، لا أدرى، خلفى دار سينما تعرض فيلما اسمه «الفضيحة»، وأمامى دار سينما أخرى تعرض فيلما اسمه «العار». وبين الفضيحة والعار أين أذهب يا ربى، أين؟ وأنادى سائق التاكسى ألتمس منه مكانًا فينظر إلى بعينى ثور فى الطريق إلى المذبح ويمضى، وأسأل عامل التذاكر فى حافلة أوقفها أمامى انسداد المرور: إلى أين من فضلك؟ والرجل - الذى بدا لى وجهه كأنه رأس دجاجة قطعوا رقبتها وألقوها للقط - ينظر إلى ولا يجدنى أهلا للجواب، وصاحب السيارة نصف النقل عاد وهو يأمرنى بأن أبتعد عن طريقه، فأنا أسد عليه الطريق، التعيس ملأ معدته فولًا وطعمية وطينًا. وغطى ذلك كله بزجاجة من البيرة، وأحس أنه أصبح ملك الفيران، ودون أن يحفل بأحد يحرك سيارته ويقتحم الطريق، ويغيب بكارثته فى الزحام..

وساعة ونصف انقضت وأنا على هذه الحال، الساعة الآن الثالثة والنصف بعد الظهر ولا أمل، وتقول لى نفسى: إذا كانت هذه جنازتك فاحترم نفسك وكن أنت الجنازة والمشيعين، والجنازة فى اللغة هى الميت نفسه، سر على بركة الله على مهلك خطوة خطوة ولتحرسك العناية، قبل كل خطوة انظر أمامك وخلفك وتحت قدميك خاصة تحت قدميك، وانظر فوقك، ولحظة من فضلك.

وعلى مهل أسير. شيئًا فشيئًا أصل إلى كوبرى المشاة وأصعد وحدى، الناس هنا ليسوا من الغباء بحيث يصعدون القناطر والكبارى، وأحسن من ذلك عندهم وألذ أن يسلكوا كالفيران أو القردة بين السيارات أو تحتها، وفجأة تجدهم فى الجانب الآخر من الشارع، ولا تدرى كيف

وصلوا،وأهبط القنطرة العلوية لأجد نفسى أمام مشكلة مرورية اجتماعية أخلاقية دينية: فهناك حاجز يفصل قسمى الشارع. والحاجز من حديد وسلك، وارتفاعه متران والقردة يتصورون أن الدولة لم تضعه لتنظيم المرور، بل لكى يتمرنوا فيه على شغل القرود، والمنظر حقيقة منظر جبلاية قرود، وسيدة محجبة تلبس ثوبًا يصل إلى الكعب جالسة أعلى الحاجز تنظر فى هلع، لقد أعجبها شغل القرود، فقرأت الفاتحة وسألت رئيس الجماعة العون، وتسلقت الحاجز. وعندما استقرت أعلاه وجدت نفسها فى مأزق ولا حل، فهى لا تستطيع أن تنزل، ولو أنها لم تكن محجبة ذات رداء يكنس الأرض لتحللت من القيد، ورفعت ثوبها شيئًا لتستطيع أن تحرك ساقيها، ولكن أمير الجماعة قال لها إن الساق عورة والعورات لابد أن تستر، وتربيتها تحرم عليها أن تأذن لذكر أجنبى أن يمسها، والناس تجمهروا للفرجة على هذه العجيبة وكل منهم يشير برأى، والمسكينة هناك معلقة بين السماء والأرض، وفى عينيها فزع بلا حدود، بعضهم يقترح استدعاء الونش أو الرافع. ومع أن الونش ذكر أجنبى فإنه حديد جماد، ولم يرد فى الذكر الحديد الجماد الأجنبى نص.

وكان بودى لو انتظرت حتى يصل الناس إلى حل لتلك المشكلة المرورية الأخلاقية الفقهية، ولكن الساعة أصبحت الرابعة، والمشوار أمامى طويل، وأجد نفسى أمام شارع صغير لابد أن أعبره والسيارات تيار واحد لا ينقطع، فما هو الحل؟ ويخرجنى من الحرج بائع جوافة ابن حلال يأتى بعربته ويقف بها فى وسط الشارع وينادى على «قلل الشربات» ويتوقف المرور ويتزاحم الناس والمرور يقف، ولكن هذا لا يهم، والبائع الذى يعرف الأصول استأذن رجال المرور قبل أن يقف،

وعبأ لهم أكياس «قلل الشربات» وارسلها مع صبيه وأغمضت العيون، والفرصة واتتنى وعبرت فى أمان «قلل الشربات».

وبعد مبنى شركة النور يستوقفنى مشهد، ما أظن أننى كنت أتصور أن من الممكن أن يحدث، فإن رجلاً قد وضع قفص خبز فى مدخل شارع جانبى وأشعل سيجارة وترك الناس يقلبون الخبز، ويمسحون فيه أياديهم، كأن الأرغفة مناديل، وبعد التقليب الطويل يحمل كل منهم سطرًا من الخبز ارتفاعه متر، ويمضى بعد أن يدفع الثمن: قرشين للرغيف، والتسعيرة نامت وماتت بين أجفان الحراس. وامرأة تقبل من بعيد تصرخ وتولول وتأخذ بضبع بائع الخبز وتستغيث، وأجمع الحكاية من رذاذ ما أسمع من كلام الناس، وملخصها أن ابنا لهذا الرجل وتلك المرأة قد داسته سيارة غير بعيدة، ووضعه الناس على الرصيف، وغطوه بورق الصحف، والمرأة تطالب الرجل بأن يسرع ليرى الابن الضحية، والرجل يرفض ويقول إن هذا الولد القتيل ليس ابنه، وكل الناس يعرفون أنه طلق أمه بالذات، لأن هذا الولد وثلاثة مثله ليسوا أولاده، هى أنجبتهم كلهم بمجهودها الخاص وهو غائب مسافر، وهو لهذا برىء من هذا الولد. ولا شأن له فيما يجرى له «خلينا نشوف أكل عيشنا بقى يابنت الـ...» والبوليس يأتى ويصر على أن يذهب الرجل معهم، فهو رسميا وفى الورق أبو الغلام، والرجل يقول: «محروق دين الورق واللى كتبوه»، وفى بحر التعاسة من عجائب المخلوقات ما يفوق أعجب مما نرى مع الدكتور جوهر العظيم فى عالم البحار.

وهذه أيضا حكاية كنت أحب أن آتيكم منها بنبأ آخر، ولكن معذرة فالساعة الآن الرابعة والثلث، وما زال أمامى ثلاثة أرباع طريق العذاب

وهذا أمامى، تاجر صف الموتوسيكلات وسد بها عين الشمس فكيف أفوت؟ والرجل العديم النظر يرانى أنظر فى دراجاته التايوانية والهونجوكنجية ويحسب أننى زبون ويقول: موتوسيكل يا حاج؟ سبحان الله أيها الذكى! إذا كنت حاجًا كما تقول فكيف أركب السيارة النارية وأنا ما حججت إلا لأبتعد عن النار وأركب دراجة الجنة؟

وبعد مسافة قليلة ينفتح باب مبنى تبين لى أنه مدرسة وليس زريبة مواش. ويتدفق تيار الأولاد، وكل منهم قد حمل سطرا من الكتب، وآخر من الكراريس، فأتذكر أن هذا أول الموسم الدراسى، وهذه الكتب حق لكل طفل فى مقابل خمسة وعشرين قرشًا فقط لا غير، لأن التعليم عندنا والكتب والكراريس بالمجان، وهذه هى فلسفة الماء والهواء التى أهدانا إياها طه حسين، والأولاد يسيرون بأحمالهم فى ملابس هى هلاهيل لبسوا فوقها مرايل أصبحت هى الأخرى مماسح بلاط فى ثلاثة أيام، والشارع هنا غارق تحت الماء، وأنا أسير فى حذر بالغ لا أدري أين أضع قدمى، وتقع الكتب من بعض الأولاد ويجمعونها، ولا أحد يهتم، وهنا بائع بطاطا، وعربة كشرى، وأخرى للفول والطعمية وكله هباب، ولكن الناس عندنا هواة زفت وقطران، وهذه أم ولد أتت تأخذ ابنها وهى - فيما بدا لى - معلمة حرم معلم وزنها طن، والولد ترك حمل الكتب والكراريس مع أمه وأخذ منها شيئا أظنه جنيها، واشترى من كل الأصناف، وأكل البطاطا، ثم الكشرى، وعجز عن البقية فناولها أمه، والبقية كانت ساندويتشات فول وطعمية، والمرأة وقفت تأكل وأخذت ورقة جريدة من الشارع ولفّت بها بقية القطران ووضعتها تحت إبطها لتعطيها لأولادها، وحملت نصف كوم الكتب والكراريس وحمل الغلام النصف الآخر، وبعد قليل يرى الولد

مرجيحة نصبها إنسان عجيب فى وسط الرصيف، ويأخذ من أمه نقودًا أخرى ويعطى بقية الكتب لأمه ويجرى ليتمرجح، والأم ترفع ذيل ثوبها وتضع فيه الكتب ولا حرج، فهى تلبس كل ما عندها من الثياب بعضها فوق بعض، وأقف لأدرس خطة لعبور الشارع، وعلى العادة أجمع القصة من رذاذ ما يترامى إلى سمعى، وهذه التركيبة الواقفة إلى جوارى تجد زكيبة مثلها، ويبدأ الحديث وأفهم أنها الزوجة الثالثة فى سجل زيجات معلم اسمه الحاج حجاب فيما سمعت وقد أنجبت منه بنتا، وهذا الغلام، وهو الخامس فى سجل نسل المعلم حجاب بارك الله فيه، والمعلم حجاب مريض القلب والكلى والكبد والرئة وكل شىء، وهذه المسكينة التى تقف إلى جوارى تنتظر ضناها وحبة عينها الذى يتأرجح مريضة بالقلب، والحكماء حذروها من الحمل وهى بين نارين: الموت من أمام وخطر الطلاق من خلف، ولا أمان إلا بولدين ثلاثة آخرين وربنا يستر. والولد تأرجح بخمسين قرشا، وأكل بجنيه، وأخذ كل كتب العام وكراريسه بخمسة وعشرين قرشًا. وهذا هو الدستور والدستور يحمى هذه الفوضى كلها، ولكنك لابد أن تقطع لسانك وترميه للقطط وإلا كنت مواطنًا متخلفا غير صالح، ولابد من عقابك، وبطل الأبطال الذى علمنا الظلم وألبسنا لباس الجوع والخوف ما زال يحكمنا لأنه غير خريطة مصر «كما قال الخطيب».

وعند كوبرى أبى العلا أجد نفسى أمام المستحيل، فهذا طريق النيل، وعرضه نصف كيلو متر. فكيف أعبره وسيل سيارات الموت لا يتوقف؟ وأنظر إلى يسارى فأرى جامع السلطان أبى العلا، فأجده كتلة من السواد لكثرة ما تراكم عليه من تراب القرون، وأقول له: مش عيب.. تبقى سلطان ويكون هذا حالك؟! ويقول لى الرجل من تحت ركام التراب:

يا سيدى أنا سلطان حقا ولكنى سلطان المتعيس، وسلطان المتعيس هو أتعسهم فيما تعلم، وأنت فيما أرى أتعس منى، ولكن لا بأس. سأساعدك: ماذا تريد؟ سيدى ولى الله أريد أن أعبر هذا المحيط.

و أنظر فإذا رجل مرور شاب على رأسه خوذة حديد بيضاء. ومن بعيد أشير إليه فأراه يقبل نحوى وأنا لا أصدق. ودون أن يسألنى يمد لى ذراعه ويقول: تعال يا حاج واعبر معى بسلام. وفى أمان هذا الضابط الطيب أعبر جبهة من النيران تذكرنى بالجبهة الغربية التى وصفها لنا أريك ماريا ريمارك فى روايته التى لا تنسى، وألتفت لأشكر هذا الشاب ولكنه اختفى، حقا إن هذا البلد فياض بالخير وأهل الخير، ولكنهم كلهم مغيبون تحت ركام التعاسة والإهمال والنسيان.

وقبل أن أعبر كوبرى أبى العلا أذكر أن عندى سؤالا يحيرنى من سنوات، وأنتهز فرصة وجودى فى حماية أبى العلا فأسأله: ولا مؤاخذة يا ولى الله، متى كنت سلطانًا على مصر؟ أأنت من سلاطين الأيوبيين أم المماليك البحرية أم البرجية أم من سلاطين آل عثمان؟ معذرة - ولو فيها قلة أدب - فأنت تعلم أننى من أهل التاريخ وأريد أن أصنفك وأضعك فى مكانك من سجل السلاطين! ويقول صوت الشيخ فى غضب: أنت مؤرخ. فأنت حشرى تتدخل فيما لا يعنيك، وأنت تذكر أن الحافظ العلامة أبا طاهر السلفى قد حرم الكلام فى التاريخ لأنه غيبة، وألم تسمع أن شيخ المحدثين الحافظ إسحاق بن مروان بن مخلد المعروف بابن راهويه قد حرم الكلام فى التاريخ، وقال إنه علم انتهى بنهاية القرن الرابع الهجرى، لأن سلسلة الرواة الثقات للحديث انتهت، فلم يعد للناس هناك حاجة بعلم التاريخ، وأنا أسير على الكوبرى كتبت مذكرة

إلى السيد مدير جامعة القاهرة أقترح فيها إلغاء قسم التاريخ تنفيذًا لرأى الحافظ ابن راهويه، ثم ألقيها فى النيل.

وأخيرا، وبعد عناء دام ساعتين ونصفا أجد نفسى فى بيتى، لا تسلنى كيف، ولكنك إذا كنت تصدق أن المركبة الفضائية اكسبلورز قد وصلت إلى نهاية المجموعة الشمسية، وانطلقت فى فضاء الله، فإنك لا تستكثر على إنسان مصرى أن يصل سالما من مصب شارع سليمان باشا - معذرة طلعت حرب - إلى بيته عبر النيل فى ساعتين ونصف.

المهم أننى انحططت على كرسى، ومددت يدى فخلعت حذائى، وجلست أسترد أنفاسى وأجمع شتات نفسى، والسيخ متولى الشعراوى قال إن الإنسان يتكون من بدن وروح، وإنهما إذا اجتمعنا كانت النفس، فهذا هو بدنى وبقيت روحى، فأنا أنتظرها لأجمع نفسى، وأهلى يهنئوننى بالسلامة كأننى عبرت الأطلسى سابحًا، ويسألوننى أن أنهض إلى المائدة، فالطعام ينتظرنى من ثلاث ساعات، وأستمهلهم، فما خلق الله بشرًا سويًّا ينظر إلى طعام بعد هذا الغلب الذى رأيت: ثلاث ساعات وأنا فى جهنم ويداى وقدماى وكلى فى النار، ثم تكون لى رغبة فى طعام؟ ثلاث ساعات لم أر فيها وجهًا مرتاحا أو ابتسامة على وجه إنسان، ثم تكون لى رغبة فى طعام؟ ثلاث ساعات بين المخاطر والمزالق والأخطار والمشاكل وأسباب الهلاك جميعا. ثم تكون لى رغبة فى طعام؟ ومنظر البطاطا وعليها أسراب الموت، والكشرى وعليه رسم جمجمة القرصان وعظمتيه، وساندويتشات الفول والطعمية وعليها رايات الخطر الحمراء، والغلمان وأمهاتهم يلتهمون السم والمرضٍ ويحملون من مالى أنا المسكين، حملًا من الكتب مقابل خمسة وعشرين قرشا، ثم تكون لى رغبة فى طعام؟.

وتصيح بى شريكتى فى العذاب، والآلام ست البيت - عوض الله صبرها خيرًا - يا رجل: تهلكنا خوفا عليك وتهلكنا فى تسخين الأكل مرة بعد أخرى ساعتين، ثم تجلس الآن على الكرسى مرتـاحًا، ونحن كالخدم بين يديك؟ حقا إن الذى يده فى الماء لا يشعر بآلام من يده فى النار.

وأنهض فأغسل يدى من هباب النار والطريق، وأجلس إلى مائدة الطعام وأصيب شيئا، لا لأنى جائع بل لكى أطمئن أهل البيت على أنى أكلت، ليرفعوا المائدة ويستريحوا، ثم أتوضأ وأصلى الظهر والعصر، وأعود إلى مقعدى وأسأل: هل بقى بيننا أحد من جنس الذين يدهم فى الماء؟ أنا شخصيا وكل من يحيطون بنا أيدينا وأرجلنا وكياننا كله فى النار، ترى أين يعيش أصحاب الأيدى السعيدة فى الماء؟

وتقع عينى على صحف اليوم: الأهرام وأبو الهول وأبو سمبل وكل سجلات المجد والفتوح، و أقرأ: رئيس الوزراء يصرح بأن تسعين فى المائة من مشاكل المواصلات قد انحلت، وأن سيارات التاكسى قد وضعت تحت رقابة حازمة، والحافلات أصبحت تزيد على حاجة الناس، ونصف مقاعدها الآن خالية، ووزير التموين يؤكد أن كل شىء فى الجمعيات متوافر، والرفوف لا تحمل ما عليها، ووزير آخر يؤكد أن عشرين مشروعًا إنتاجيًا قد تمت. وهى تنتج الآن أضعاف ما أملناه منها فى ربع الوقت المقرر، ونحن نصدر منها الآن بملايين الجنيهات، ووزير ثالث يؤكد أن كل طفل يولد على أرض مصر له مكا الجامعات، وحقه فى الماجستير والدكتوراه مضمون، وفى مؤتمر التكنولوجيا العليا الذى عقد فى القاهرة أخيرًا تقدم الباحثون المصريون بمائة بحث فيها علاج الدنيا من كل

أمراضها، حتى مرض سقوط الأظافر الذى يشكو منه أهل كما تشاكا، وتحيرت فيه مراكز البحث فى الدنيا، وجد له شاب صغير عبقرى فى جامعة كفر العفاريت علاجًا ناجحًا، والعلاج رخيص بسعر التراب، لأن الباحث المصرى النابغة وجد الدواء فى فطر يعيش فى مستنقع قريته، وسبحان الله : خلق المرض فى كما تشاكا والدواء فى مستنقع قرية صاحبنا، ويضيف الخبر أن تلك الجامعة ستتخذ قرارا باعتبار المستنقع منطقة علمية لابد من المحافظة عليها بكل ما فيها من أصناف البعوض وحوامل الموت.

وأتأمل الأخبار وما يزينها من الصور، فأجد وجوهًا ضاحكة تطفح بالسعادة، وكل هؤلاء سعداء محبورون يسبحون فى بحار الهناء، وأقول لنفسى: إذن فهؤلاء هم الذين أيديهم فى الماء، هؤلاء السادة المسئولون السعداء هم الذين أيديهم فى الماء، هؤلاء هم الذين يسبحون فى أنهار الرخاء سبحًا، وإلا فهل يضىء وجه إنسان بهذا البشر كله إلا إذا كانت يداه ورجلاه وكل جسمه العزيز فى الماء، وهذا والله رجل لا يمكن إلا أن يكون فى قمة السعادة، فإن ابتسامته من الأذن إلى الأذن، ووجهه مشرق وضاء وهو يقول: مجلس الشعب يضرب رقما قياسيا فى إقرار القوانين: ١٥٠ قانونًا فى هذه الدورة؟؟ كل قانون منها يفتح لنا بابًا من أبواب السعادة والرخاء، وملايين الدولارات تنهال علينا ونحن لا ندرى، وشباب مصر خسر معركة الكرة أمام زامبيا - تصور زامبيا؟ ولكنه نفذ مشروعات هائلة بجهود ذاتية ى كل محافظات مصر، والعالم كله يصفق، وهذا هو تصريح مسئول كبير - ولا تسلنى: مسئول عن إيه، لأنه مسئول وبس، وأنت يا حشرى مش مسئول وبس، ومتى كان هلفوت غير

مسئول مثلى ومثلك أن يرفع عينيه فى وجه مسئول مشرق الوجه بكل آلاء سعادة الدنيا؟

* * *

وعشرات المرات سألت نفسى: هذا المسئول - الكبير أو الصغير - مسئول عن ماذا؟ وزير الصناعة مثلاً هل هو مسئول عن الصناعة؟ ومسئول أمام من؟ وما حدود هذه المسئولية؟ لقد كان عندنا وزير صناعة يقول إننا نصنع كل شىء من الإبرة إلى الصاروخ، ثم تبين بعد ذلك أننا لا نصنع الإبرة أو الصاروخ، فماذا فعلنا له؟ وكان عندنا وزير زراعة يقول إن إنتاجنا الزراعى يغطى كل حاجتنا فى سنة ١٩٨٢، وجاءت سنة ١٩٨٢ وراحت، وإنتاجنا الزراعى لا يغطى ٤٠ فى المائة من حاجتنا، فماذا فعلنا فيه؟ ووزراء التعليم جميعًا قالوا إن الأمية ستتلاشى من مصر سنة ١٩٨٠، ونحن الآن سنة ١٩٨٣، ونسبة الأمية زادت حتى قاربت ٨٠٪ فماذا فعلنا لأولئك السادة!

أتريد الحقيقة يا سيدى؟ إن المسئولين فى هذا البلد هم الذين لا يسألهم أحد عن شىء، أما غير المسئولين - مثلى ومثلك - فهم فى الحقيقة المسئولون. نحن نحمل على أكتافنا كل الأعباء، كل المتاعب، كل الديون، وهؤلاء الذين مررت بهم فى الطريق مسئولون عن أولاد ونسوان ونفقات بلا نهاية، أما الذين نسميهم مسئولين - وكلهم على وزن فعيل: وزير وكيل. رئيس. مدير - فهم غير مسئولين فى النهاية، أو هم - إذا أردت الإنصاف - مسئولون عن أنفسهم وأولادهم وحواشيهم وهنا - إن جئت إلى الحق - يقومون بمسئولياتهم كاملة، كلهم ياسيدى أيديهم فى الماء العذب الزلال، وأولادهم يسبحون فى الماء الصافى النمير سبحًا، كلهم لا يعيشون فى عالمنا الجميل هذا، ولا يخوضون معارك الأسعار

ولا يحترقون ليقطعوا بحار الشهور بمرتبات هى ملاليم، كلهم لا يعرفون عذاب مشى الرصيف أو الخوض فى مستنقعات الشوارع، أو التخشب فى محطات الأوتوبيس، أو التذلل بين أيدى سائقى التاكسى، كلهم يقولون إن الأسعار فى غاية من الرخاء، وهى فعلاً رخية لهم، لأن دخولهم فوق مستواها، ولا شىء يغلو عليهم، حتى حفلات خوليو ايجليسياس وداليدا رخيصة لهم، وماذا فى مائتى جنيه تنثر فى ليلة على طعام فى النادى، والمدموازيلات يتغزلن فى المغنى الأسبانى، وهو يدهش من أمرهن ويسأل إحداهن: والسيدة الوالدة.. ألن تغضب إذا رأتك على هذه الحال؟ يا سيدى إنهم هم الذين يصنعون الأسعار ويضحكون علينا بالتسعيرة. والأسعار التى لا يحفلون لها تبكينا لأنها فوق مستوانا. عالمنا يا سيدى لن تجد فيه إلا تعيسًا وأتعس والأتعس. وعالمهم لا يعيش فيه إلا سعيد وأسعد والأسعد، ونحن مسئولون عن كل شىء لأننا نعيش فى وادى غير المسئولين، وهم غير مسئولين عن شىء لأنهم يعيشون فى رياض المسئولين.

وواحد منهم قضى - يا أخى - أكثر من عشر سنوات فى جحيم الوزارة، وهكذا يتحدث عن منصب الوزير. مرتبه كما هو فى الدفاتر لا يزيد عن ٣٠٠ جنيه فى الشهر، ولكن المسكين دخل الوزارة من شقة وخرج منها فى فيلا على بابها الأمامى مرسيدس ٢٨٠ أس. أى. وعلى بابها الخلفى سيارة أغلى وأجمل للست هانم والأولاد، لا تسأل من أين أرجوك، لأن السيد الوزير حصل بعد عذاب الوزارة على لقب وزير سابق، ووزير سابق يساوى فى تسعيرة السعداء أكثر من وزير راهن أو مرهون، والوزير السابق العزيز تولى إدارة بنك، وراتبه فيه ٣٠,٠٠٠ جنيه يضاف إليها ٥٠,٠٠٠ بدلات - فى السنة، لا فى الشهر أرجوك - والراتب

معفى من الضرائب بحكم القانون، والبدلات معفاة هى الأخرى بحكم القانون وبالعافية أيضا، هذا الرجل أصبح طاووسًا، لأن الطاووس هو المخلوق الذى يزيد ذيله على جسمه حجمًا وجمالاً، وصاحبنا بدلاته أكثر من جسمه فهو طاووس. والطواويس عندنا أيديها كلها فى الماء، بيوتهم فيهـا جميل وأجمـل والأجمل، وبيـوتنـا ليس فيهـا إلا وحش وأوحش والأوحش، وحذار أن تسىء الأدب، فهؤلاء أولياء أمرك يا ولد، ومنذ متى كان لأبى فصادة المنتوف الذيل أن يتطاول ويتـطلع إلى الطاووس ذى التاج والذيل الباهر الألوان؟!

قف عند حدك أيها الصعلوك، فالدنيا درجات ومقامات، تأدب وقف مكانك، فإذا كانت يدك فى النار فاصبر على ما أصابك، فهذا هو القدر المكتوب على جبينك ولا فرار، وإذا لم تعجبك هذه الدنا فاحترق إلى أخرى، وعندك بعد ذلك الآخرة وفيها إن شاء الله العوض، وحيـاتك ستبدأ بعد أن تخلص من هذه الدنيا، ويرحب بك فى عالم الخلد صوت الملقن يقول: يا عبد الله هذا آخر يوم من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة! وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه قال: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا..

وإلى أن نلتقى على خير إن شاء الله..

ذكريات حلوة..
وأصداء مرة..

فى الواحدة بعد ظهر ٦ أكتوبر ١٩٧٣ بدأ الحدث الحاسم، انطلقت أكبر قوة طيران ملكتها أو حركتها دولة من دول العالم الثالث - ٢٤٠ طائرة - بنظام كامل محكم من المطارات الحربية المصرية. واستطاعت بدقة كاملة أن تهدم فى بحر ساعة من الزمن كل ترسانة العدو الإسرائيلى فى جبهته الغربية وسيناء: القاعدة الجوية الإسرائيلية فى العريش، والمطارات الحربية الأخرى التى أنشأتها إسرائيل فى سيناء: مطارات المليز وتمادة والسر والجفجافة شرق الحائط الجبلى فى منطقة الممرات، وتحطمت فى نفس الوقت مراكز الرادار والتشويش فى أم خشيب وأم مرجم والطاسة وغيرها.

بتلك الضربة إنشلت قوى سلاح الطيران الإسرائيلى، قطعت يدها الطويلة التى كانت تتصور أنها تستطيع أن تفعل بمصر ما تشاء، فى أقل من ساعة أصيب هذا الجهاز العسكرى الرهيب، ركيزة التفوق العسكرى الإسرائيلى. والكبرياء الإسرائيلية، وأصيبت إسرائيل كلها بذعر كامل، إذ اضطرت إلى أن تعد فى سرعة خطرة مطارات وأجهزة أخرى فى العمق

الإسرائيلى لمواجهة اليد المصرية الطويلة التى كالت لها هذه الضربة التى لم تكن لتخطر لأحد من بنى إسرائيل على بال.

فى نفس الوقت انطلقت قذائف المدفعية المصرية الثقيلة - ٤٠٠٠ مدفع مضافا إليها قوة صواريخ أرض أرض كاملة - انطلق هذا الوابل النارى يحطم كل مراكز المدفعية الإسرائيلية على الشاطىء الشرقى للقناة ومراكز مدفعية الهجوم الإسرائيلية فى خط بارليف وما وراءه إلى عمق يتراوح بين ١٠ و١٥ كيلومترا، وأصيبت قوة المدفعية الإسرائيلية على طول ضفة القناة الشرقية بضربة قاصمة، حطمت خطوطها الأمامية والخلفية وتمهد الطريق أمام العبور.

وخط بارليف الرهيب الذى أنشأته إسرائيل ليكون السد المسلح الهائل الذى يحول دون مجرد التفكير فى العبور، ويؤمن سيطرة إسرائيل على سيناء للأبد، هذا الخط الحصين تحول إلى خندق - أو قل إلى سجن - للقوات والمعدات الإسرائيلية المركبة فيه، انتهت إلى الأبد قيمته العسكرية كلها.

وحتى الساتر الترابى الهائل - سد يأجوج ومأجوج - الذى أقامته إسرائيل على ضفة القناة، وبنته من تربة طفلية وصلصالية تجعل مهمة اختراقه بقنابل المدافع مستحيلة، هذا الساتر اندفعت خراطيم المدفعية المائية المصرية تحطمه، وتحيل ترابه إلى طينة لزجة متماسة صماء أخذت تنحدر إلى مياه القناة وتعرضها للردم بالطين، أو ما يسمى بالإطماء، فكان لابد من إزالة الإطماء على عجل حتى لا يحول الطين اللزج دون عملية إقامة رءوس الجسور للعبور وبسرعة خاطفة وعبقرية عسكرية حقيقية وجهت تيارات المضخات المائية الكاسحة إلى أعالى الساتر لكى ينحدر

الطين إلى الناحية الشرقية بدلا من السقوط فى القناة، وأمكن فى بحر ست ساعات من العمل المتواصل شق ٨٥ ثغرة فى ذلك الساتر الترابى. وبسرعة خاطفة تمكنت القوات المصرية من إقامة ١٠ أو١١ من الكبارى العائمة الثقيلة bniages pomtoom لعبور الدبابات و١٠ كبارى للمشاة ونحو ٥٠ معدية، وعبرت القوات بأدواتها الثقيلة والخفيفة وبدباباتها أيضًا، وشرعت فى إقامة معابر bridge heads وبدأت عملية كانت تبدو مستحيلة: العبور.

وهل هذا كله كان معناه العبور الكامل؟

أبدًا، فإن هذا كله ما كان ليجدى نفعًا لو لم تسلح طلائع القوات العابرة بأسلحة جديدة ابتكرتها العبقرية العسكرية المصرية: صواريخ كتف خفيفة مضادة للطائرات والدبابات، وعربات يد خفيفة تحمل الأسلحة والأثقال والمؤن وتجر باليد، وسلالم من الحبال ليتسلق بها الجنود الساتر الترابى مستعينين بسلالم خشبية ليتمكنوا من الإجهاز عليه، كل هذا تم إعداده فى سرعة خاطفة، وأصبح حقيقة، وعبرت القوات المصرية واخترقت الساتر الترابى وانقضت على قوات العدو الإسرائيلى خلفه فى طريقها للاستيلاء على عرين الأسد نفسه: خط بارليف.

وبدأت بالفعل تستولى على حصونه فى حماية مظلة نيران المدافع المصرية fire barrage وهذا كله - وهنا جانب آخر من جوانب المعجزة العسكرية المصرية - تم على امتداد القناة من البحر المتوسط إلى الخليج - ١٧٠ إلى ١٨٠ كيلو مترًا، أو نحو ١٠٠ ميل فى المراجع الإنجليزية التى أعتمد عليها الآن - ومع أن المصريين لم يستولوا فى هذا الهجوم العسكرى الخاطف إلا على ١٠٠ كيلو متر من ضفة القناة

الشرقية، فإن قواتنا استردت بعملها هذا القناة كاملة، لأن طبيعة ضفة القناة فيها قطاعات ذات تكوين جيولوجى خاص يخرجها من المواجهة.

وبهذه الضربات التى لا تصدق، كانت مصر قد تمكنت خلال الأيام الثلاثة الأولى من الهجوم من استرداد قناتها وإزالة الساتر الترابى، والاستيلاء على خط بارليف بكامله ودخلت فى مواجهة حقيقية - للمرة الأولى - مع القوات الإسرائيلية، فاكتسحتها اكتساحًا. وهذا ما كانت إسرائيل تعرفه وتخشاه، ولهذا ففى حروبها الماضية كلها معنا كانت تحرص على أن تتجنب تلك المواجهة باستخدام سلاح الطيران الذى كان يمثل يدها الطويلة التى توقف أى محاولة مصرية للتقدم للمواجهة مع الجندى الإسرائيلى الذى كان قد أصبح بفضل هذا التكتيك - أو قل: الكذبة التكتيكية - أبسل جندى فى الدنيا، وضراوة جنود الصابرا الانتحارية، كانت قد أصبحت من زمن طويل حقيقة فى أذهان الدنيا بفضل سلاح الدعاية، أو قل: الكذب الإسرائيلى المحكم.

وكانت القيادة المصرية تعرف أن العدو، لن يلبث أن يستعيد توازنه، ويلجأ إلى استخدام سلاح طيرانه المخيف من مطارات أخرى، ليحطم المعابر ويوقف تدفق قواتنا فلجأت خلال الليل إلى تحريك سريع لمواقع الكبارى والمعابر واتجاهاتها ومحاورها، وأقامت بعض الكبارى والجسور الخداعية لينشغل بها العدو، وغطت ذلك كله بغطاء كثيف من الدخان يمنع الرؤية واستمرت عملية العبور.

وفى ٧ أكتوبر أعلنت إسرائيل أنها دمرت كل المعابر ورءوس الجسور التى أقامتها القوات المصرية، أعلنت ذلك مقدمًا، ثقة منها فى أنها ستفعل ذلك حتما، بل أعلنت أنها ستسيطر على الضفة الشرقية خلال ٢٤ أو ٤٨

ساعة! وبعد ذلك بيومين أعلنت أنها تخلت عن خط بارليف، وأن الحرب ستكون طويلة وصعبة جدًا، وأن الخسائر الإسرائيلية فادحة!

أعلنت إسرائيل ذلك بعد أن تأكدت أنها خسرت المواجهة مع المصريين بعد أن بذلت أقصى ما استطاعت من جهد. ففى الليل من يوم ٧ أكتوبر (ليلة ٨ أكتوبر) قامت إسرائيل بهجومها الجوى الشامل، تحركت يدها الطويلة وقبضتها الحديدية لتضرب الضربة القاضية، أو ماسمته صحفها بضربة اليد القاضية من أسفل إلى أعلى Istailis Straight left hand book.

و٢٥٠ طائرة إسرائيلية قامت بقصف المواقع المصرية على ضوء المشاعل المعلقة فى السماء، فجعلت الليل نهارًا واستمر ذلك طول الليل، وفى الصباح جربت إسرائيل الضربة القاضية اليمنى، ونصف قوة سلاح الجو الإسرائيلى ٢٥٠ طائرة مقاتلة من أقوى طراز - قامت بغارات جوية متلاحقة على ارتفاع منخفض لتصطاد كل جندى مصرى، وكل دبابة مصرية، كما فعلت بنجاح باهر سنة ١٩٦٧، ولكن هيهات فقد فوجئت بوابل من صواريخنا قصيرة المدى من طراز سام ٧ تساندها المدفعية فاضطرت إلى الارتفاع لتصيدها صواريخنا بعيدة المدى من طراز سام ٢ وسام ٣ فتساقط الكثير منها، أو عجز عن تحقيق أهدافه، وبعد ساعات من المحاولة تبينت إسرائيل أن يدها الطويلة قد قطعت، وأن المصريين نجحوا فى أن يغطوا قواتهم بستار سميك جدًّا من النار الحامية يستحيل اختراقه. لقد نجحت المدفعية - ربما للمرة الأولى فى التاريخ - فى تغطية القوات المهاجمة بغطاء كامل الوقاية، وتحرر الطيران المصرى من عبء تغطية القوات، وانطلق ليصيب قلب دفاعات العدو ومراكزه وقواعده خلف الجبهة.

ودباباتنا العابرة تمكنت من تحطيم دبابات العدو فى أضخم معركة دبابات فى التاريخ، وأدرك موشيه دايان أنه انهزم. واعترف بذلك، وأنا أنقل نص كلامه هنا مما أورده د. جمال حمدان فى كتابه القيم (٦ أكتوبر فى الاستراتيجية العالمية). (ص ٧٧) «لقد كانت لى نظرية هى أن إقامة الجسور سوف تستغرق منهم طول الليل، وأننا سوف نستطيع إيقاف ذلك بمدرعاتنا. ولكن تبين أن هذه ليست مسألة سهلة، ولقد كلفنا إرسال الدبابات إلى جبهة القتال ثمنًا غاليًا جدًّا، فقد أحدثت الأسلحة المضادة للدبابات التى استخدمها المصريون خسائر فادحة فى المدرعات الإسرائيلية، وكانت هذه نقطة خطأ أساسية من هيئة الأركان الإسرائيلية؛ فنحن لم نتوقع ذلك»..

ويمضى موشيه دايان يستغيث بالولايات المتحدة ويصيح: إن لم تدركونا هلكنا. والولايات المتحدة التى تقف فى وجه العرب دائما فى اللحظات الحاسمة أسرعت بإرسال مدد لإسرائيل عن طريق جسر جوى، لم يسمع بمثله من قبل، وآثارها الصناعية تضع نفسها فى خدمة إسرائيل، وتكون التعقيدات التى نعرفها جميعًا، ولو لم تفعل الولايات المتحدة ذلك فربما كانت قد خلصت نفسها إلى الأبد من عقدة إسرائيل. وكسبت العرب والشرق الأوسط معهم، ولكنها تصرفت على هذا النحو لسوء حظنا وسوء حظها أيضًا، فإسرائيل فى نهاية المطاف ليست دولة ولا أمة تقوم على أرض هى لها، ولكنها قوة عسكرية تأخذ شكل الدولية، قوة احتلال أجنبى يزعم أنه أقام وطنًا وأمريكا - عن علم أو جهل - ما أكثر ما تقف وراء الباطل. ثم تندم بعد ذلك ساعة لا ينفع الندم! وقفت إلى جانب الطاغية الجبار شاه إيران رضا بهلوى، وتخلت عنه عندما

احتاج إليها. وهى اليوم تقف وراء فرناندو ماركوس فى الفيلبين وستتخلى عنه فى القريب، ووقفت إلى جانب بينوشيه فى تشيلى عندما تصدى بقواته العسكرية لمذبحة سلفادور أيندى ومن معه، وكما تخلت روسيا وقت الحاجة عن ايندى وتركته لأعدائه ليذبحوه، أو ليرغموه على الانتحار، فستتخلى أمريكا فى القريب عن بينوشيه، والعالم بين الطاغية الروسى والطاغية الأمريكى يقف بالفعل معرضا بين نارين.

وموشيه دايان الذى كان يتمنى أن تقوم القوات المصرية بمحاولة العبور ليسحقها سحقًا ويغرق المصريين إلى آخر جندى فى مياه القناة وقف ينظر إلى القوات المصرية الزاحفة وقد مادت به الأرض، وأيقن أن عقدة التفوق كانت قناعًا على عينيه والآن زال القناع، ومن يومها إلى أن مات استقر فى نفسه احترام بالغ للمصريين ورجل العبور أنور السادات.

أنتقل بك الآن إلى الجبهة السورية فى حرب أكتوبر لنرى الفارق الهائل.

لقد رأيت قدرة المصرى على تنفيذ الخطط واستعمال الأسلحة والالتزام بالخط المرسوم تحت النيران.

فعلى الجبهة السورية وفى نفس الوقت بدأ الهجوم السورى المباغت، وفى الساعات الأولى وبينما كان المصريون يجاهدون للعبور تمكن السوريون فى هجوم شامل على طول هضبة الجولان من استعادة جبل الشيخ وجزء كبير من القطاع الأوسط، ووصلت القوات السورية إلى أبواب القنيطرة عاصمة الجولان وقاعدتها الاستراتيجية، بل بلغ من نجاح الخطة المصرية السورية التى وضعت بإحكام أن وصلت الطلائع السورية إلى حدود إسرائيل وتوغلت فى شمال إسرائيل، حتى أصبحت

على حافة التلال المطلة على الجليل، وكانت على وشك شطر القوات الإسرائيلية العاملة فى الشمال إلى شطرين.

وهنا يتبين لك الفرق بين الجنديين المصرى والسورى، فبينما التزم المصرى بخطته بأمانة تامة فلم يخسر نصره، نجد السوريين فى نهاية اليوم الثانى من الحرب (٧ أكتوبر) يزدهيهم النصر، ويخدعهم ما كتبه أحد الصحفيين الفرنسيين، وهو جيرار لوجران، من أن السوريين على وشك أن يقتطعوا قطعة من شمال إسرائيل كقضمة تفاحة (جمال حمدان ص١٢٠) فيصدر القائد السورى الأعلى مصطفى طلاس، الذى ما زال قائدًا أعلى، أمره بفرد جناحى الهجوم السورى ليتم الاستيلاء على قطعة أكبر من شمال إسرائيل بالإضافة إلى جبل الشيخ، والقنيطرة التى أعلنت الدعاية السورية - سابقة للحوادث - أنها تحررت،وهنا كانت الكارثة، لأن فرد الجناحين كان على حساب كثافة القوة المهاجمة، ورقت كثافة قوة المدرعات السورية المهاجمة، ولم تعد قوة الدفاع المضادة للطائرات بالكفاءة اللازمة لحماية كل الجبهة، وبينما كانت الطائرات الإسرائيلية تتساقط بغزارة على الجبهة السورية خلال اليومين الأولين حتى قيل - يومها - إن صيد الطيارين الإسرائيليين الهابطين بالمظلات أصبح هواية الدمشقيين، نجد سلاح الجو الإسرائيلى يحطم القلب السورى، وتتقدم دبابات إسرائيل وتستعيد جبل الشيخ، وتقذف بالسوريين بعيدا عن القنيطرة، وهنا ودون داع أصلا نجد الطائرات السورية تهاجم المستعمرات الإسرائيلية فى الجولان: فى سهل الحولة، والجليل ومرج ابن عامر، فى حين وصلت المدرعات الإسرائيلية إلى مشارف سعسع، وضاعت الخطة وتفرق الجهد، والجبهة انخرقت فى الوسط

تماماً فى اليوم السادس من الحرب، وعندما جاء وقت وقف النار كانت إسرائيل أبعد داخل سوريا مما كانت عليه قبل الحرب.

هذا ياسيدى يعطيك مثالاً عن كفاءة المصرى وبسالته إذا هو أعطى فرصة وترك لينفذها، وأنا ما أقصد أبدًا المقارنة بين الجندى المصرى والجندى السورى، فالجندي السورى مقاتل عربى باسل، وهو أخونا فى النضال، ولكن لم نعلمه شيئًا، فكيف نطالبه بما لم نعلمه نحن إياه ؟! وكيف نلومه فيما نحن أسوأ منه فيه!

وعندما تقف فى إدارة حكومية وترى الهرج والفوضى والقذارة وسوء الأداء وضعف الالتزام واللامبالاة فإياك أن تتهم هذا الشعب، بل اتهم مدير تلك الإدارة، ثم من فوقه، ومن فوق فوقه، حتى تصل إلى الوزير إذا اقتضى الأمر، فنحن لا يهمنا إلا مصر، وليس لنا إلى جانبها عزيز.

وعندما أقرأ فى الصحف ، أن محافظة القاهرة قررت هدم كل أدوار العمارات المضافة دون ترخيص تطرب نفسى وأقول: أخيرا محافظ حاسم!

وعندما أقرأ بعد ذلك أن محافظتى الجيزة والقاهرة معا أوقفتا العمل بهذا القرار لإعادة النظر فى التعقيدات التى تترتب على تنفيذه أقول: يا خسارة ياناس! يا ألف خسارة!! ولماذا لم تدرس كل تلك المشاكل والتعقيدات قبل إصدار القرار؟

وعندما يهمس الناس فى أذنى: لقد أوقفوا تنفيذ القرار لأنهم مشتركون فى بناء الأدوار غير المرخص بها، وأنهم أوقفوه حماية لمصالحهم أقول: معذورون! الناس المساكين معذورون.

وعندما أقرأ أن مجلس الشعب وافق على قرار بإيقاف التعدى على الأرض الزراعية محافظة على الثروة الحقيقية الوحيدة التى نملكها أقول: قرار رشيد لمجلس نواب رشيد!

وعندما أرى أن العدوان على الأرض الزراعية يستشرى أكثر مما كان قبل صدور القرار أجد نفسى أقول: وماذا تفعل الحكومة؟

وعندما أسمع طلابى من شباب القرى العائدين لمواصلة دراستهم فى الجامعات يقولون: إن أصحاب الأمر فى نواحيهم على رأس المعتدين على الأراضى الزراعية، وإن بعض كبار المسئولين هناك تحولوا إلى سماسرة عقارات، وإن العمد ومشايخ الخفر ومشايخ العزب يشتركون فى توسيع كوردونات القرى، لتحويل الأراضى الزراعية إلى أراضى مبان، وإن فلانا فى المحافظة وإن علانا فى القاهرة يتولون حمايتهم ويشاركونهم الغنيمة، أقول: إن هؤلاء الشبان معذورون، وأنا نفسى لا أستطيع تفسير ما تراه عيناى، وفسرها لى أنت يا سيدى إن استطعت.

* * *

وكلام كثير أليم وشائن يملأ الأسماع، والقلب منقبض، والنفس فى حيرة، والدموع فى العيون على ما يعانى منه شعب محير متعب، يشعر أنه ضائع. كما كان رجال جيشنا يشعرون عندما ضيعهم قادتهم فى حرب ١٩٦٧، وناس على أكبر جانب من المسئولية تشير إليهم الأصابع باتهامات رهيبة، وأنا لا أملك إلا أن أقول: إن الناس معذورون!

ألم تصدر محكمة مصرية من شهور قرارًا بطرد ثلاثة وزراء سابقين من بيت استولوا عليه معا أيام كانوا وزراء واغتصبوه من صاحبته؟

واكتفت المحكمة بطردهم أو استخلاص المال المغصوب من أيديهم. فهل نحن إذا قبضنا على لص ووجدنا المال فى جيبه نكتفى باسترداد المال وإطلاق سراحه؟!

وأجلس وأمامى طلاب الدراسات العليا بجامعة القاهرة لكى أحاضرهم فى منهجية التاريخ، ولكنى لا أستطيع حصر ذهنى فهو مشتت، فقد قرأت فى نفس الصباح كلامًا غريبًا لمدير جامعة القناة يقول فيه: إن جامعة القناة تبدأ حيث تنتهى جامعة القاهرة.

ماذا يريد هذا السيد يا ناس؟

جامعة القاهرة تصبح مدرسة ثانوية بالنسبة لجامعة القناة؟!

ولماذا؟

لأن رئيس جامعة القناة دكتور جديد صغير السن «زغنن» يعنى؟ ورئيس جامعة القاهرة دكتور قديم «عجوز ما ينفعش» يعنى؟

ليه يا ناس هذا الكلام؟

هان عليكم هذا الشعب؟ هانت عليكم عقولنا؟

* * *

ورئيسنا يهز قلبى بخطابه فى الأمم المتحدة بحصافة نظره وسلامة رأيه وحسن بيانه.

وأسأل لماذا أيها الناس لا تكونون على مستوى القيادة، كما كان الجنود على مستوى قيادتهم فى حرب أكتوبر فكان النصر العظيم؟

وينبهنى الطلاب قائلين: أين أنت يا أستاذ؟ أين سرحت؟

وأقول: شرد بى ذهنى إلى ضفاف القناة حيث قام شباب مثلكم بتحقيق معجزة لمصر، لأن الجيش والقيادة كانا على مستوى واحد رفيع من المسئولية والقدرة على الأداء.

ويقولون: فسر كلامك يا أستاذ!

وأقول: خير لنا أن نعود إلى منهجية التاريخ. فإن الماضى ظهره قوى يتحمل كلامنا، وأهله مضوا إلى رحمة الله، أما أهل الحاضر فأخشى ألا نكون حملهم، وهل تذكرون حكاية الفك المفترس؟ إذن فحذار من الفك المفترس!

حكاية مدام عفاف
والسلطان العادل
سيف الدين خوش قدم

كنا فى الولايات المتحدة أول ما عرفت السكرتيرات، أو أمينات الأسرار، كانوا قد اختارونى أستاذا زائرا فى جامعة ييل فى مدينة نوهيفن فى ولاية لونيكتيكات بشرقى أمريكا..

وأيامها كانت الدنيا دنيا، وكانت أمريكا بلدا سعيدًا آمنًا، ولم يكن الناس قد عرفوا بعد قطاع طرق الشوارع، أو جماعات الروكز، أو السفاحين الذين يقتلون الرجل ليحصلوا على ١٠ دولارات، أو لمجرد نزوة طلعت فى دماغ الواحد منهم فيقول بعد ارتكاب جريمته: أحسست أننى لابد أن أقتل إنسانا، وكان هذا الرجل أقرب إنسان إلىّ.. أنا لا أعرفه، ولا بينى وبينه خصومة، ولكن هكذا أراد حظه فقتلته! وهذا يحدث فى أمريكا كل يوم.

وبدلا من أن يعاقبوه يحيلونه على علماء النفس، وينزلونه فى مستشفى هو فندق، فعنده الطعام والتليفزيون ومكتب وورق وصحف وكل ما يشاء،

وتنقضى عشر سنوات وهم يفكرون فى أمره، وصاحبنا ما نشان الذى قتل مع عشيقاته الممثلة شارون تيت على أبشع صورة ما زال فى المصحة والحكومة الأمريكية تنفق عليه ٢٠٠ دولار فى اليوم، ثم جاءه الفرج وألغيت عقوبة الإعدام لأنها - تصور! - منافية لحقوق الإنسان.

ولهذا فإن البلاد الإسلامية العاقلة مثل السعودية ترفض التوقيع على ما يسمى بالإعلان العالمى لحقوق الإنسان، لأن فى هذا الإعلان أشياء غير معقولة بل منافية لأبسط قواعد العدالة، وكيف والله يقال: إن القاتل لا يقتل؟ لأن الدولة - ممثلة الأمة - لا ينبغى أن تلجأ إلى الانتقام؟

المهم أننى ذهبت فى سنة ١٩٥٠ أستاذًا زائراً فى جامعة ييل، وكنا حوالى عشرة رجال ونساء أعضاء هيئة التدريس فى قسم التاريخ، وكانت للقسم سكرتيرة واحدة اسمها مسز نورما كارتن، كانت فى منتصف الأربعينات من عمرها، وكانت وسيمة رشيقة، ولها ولد وبنت فى أوائل العشرينات.

ومسز كارتن كانت تقوم بأعمال السكرتارية لنا كلنا على نحو يدعو إلى الإعجاب، كنت لا تراها إلا فى آنق صورة دون تكلف أو قصد، كنت تراها فى ثياب رشيقة غاية فى الحشمة. على وجهها ابتسامة لا تغيب، وفى نفسها طيبة جميلة، وأنت تأتى فى الصباح وتطلب منها كل ماتريد: تملى عليها نصوص خطابين أو ثلاثة، وترجوها أن تحجز لزوجتك موعدًا مع طبيب التوليد، وترسل زهورًا إلى زميل لمناسبة عيد ميلاده، وتحجز لك تذكرة فى قطار السابعة صباحًا إلى نيويورك بعد غدٍ مع الحجز فى فندق كذا، هى تسألك إن كنت ستحضر العشاء عند العميد فى يوم كذا، وتبلغك أن الأستاذ فلان مريض فى المستشفى ويستحسن أن تمر عليه، وتدخل إلى

درسك وتلقى محاضرتك وتخرج لتجد أن كل شيء تمام على الطريقة الأمريكية لا المصرية: خطاباتك جاهزة على التوقيع، وموعد الطبيب حجز، والزهور أرسلت، وتذكرة سكة الحديد حجزت وكذلك حجرتك فى فندق ولنجتون وهذا هو رقم الغرفة، وهى تنصحك بأن تحضر العشاء عند العميد لأن السيدة حرم العميد لا تحب أن يعتذر أحد عن الاستقبال فى بيتها.

وكنت أنا أقل مئونة من غيرى لأن الآخرين كانوا يطلبون عشرات الأشياء، وهى تقوم بكل المطالب فى كفاية تملأ النفس بهجة وهى لا تنسى أن زوجتك اقترب ميعاد ولادتها، فهى تمر عليها فى البيت لتذهب معها إلى المتاجر لشراء حاجات الطفل القادم.

وإلى حد بعيد كانت نورما كارتن الذراع اليمنى لعشرة رجال ونسائهم، وكان رئيس القسم مؤرخًا عظيمًا ولكن مشاكله مع امرأته لا تنتهى ونورما دائمًا هى الوسيط وقاضى الصلح.

* * *

وعرفت السكرتيرات مرة ثانية فى اليونسكو فى باريس فى مقر اليونسكو من ربع قرن مؤسسة نافعة فعلا، أما اليوم فهى مؤسسة أوقاف عجوز لا ينتفع منها إلا موظفوها وخبراؤها المستحقون فى أوقاف اليونسكو، وهم ألوف ومرتباتهم تستهلك كل دولار فى خزائنها.

وكانت تصاريف العمل قد شاءت، أن أكون خبيرًا هناك لمدة سهور ثلاثة، لدراسة موضوع أثر وسائل الاتصال بالجماهير على الشباب، وكنت أقضى فى باريس نصف الأسبوع والباقى فى مدريد، وكان لى هناك مكتب وسكرتيرة تسمى مدام أرفيو، سوزان أرفيو.

هذه يا سيدى كانت فى الثلاثينات، ولكنها كانت آية فى الكفاية، كانت تجيد الإنجليزية والفرنسية وتكتب الماكينة بسرعة ودقة، وتأخذ أى رسالة بالاستينو أو الاختزال، وكانت تعرف كل شيء وتحل لك كل مشكل، وتعطيها فقط المذكرة فتكتبها لك أحسن كتابة وأبلغها، وتحجز الطائرة والفندق وتحافظ لك على حقوقك فى المنظمة، ومن الثامنة صباحًا تجدها فى مكتبها، وفى منتصف النهار تدعوك للغداء فى الكافيتريا مع زوجها وابنتها، زوجها الطبيب يدعوك إلى مسرحية بديعة يمثلونها فى الشاتليه، ومدام أرفيو تنصحك فى كل ما يتعلق بما تريد شراءه لزوجتك وأولادك، وهى تذكرك بموعدك مع طبيب العيون، ولا أذكر أنها نسيت مرة واحدة أن توصلنى بسيارتها إلى المحطة الجوية (الأبرو جار) قرب الأنفاليد، فإذا لم تستطع فهناك ابنتها كارولين أو زوجها الدكتور روجيه أرفيو.

وإلى جانب ذلك كله فهى باريسية من شعرها إلى كعب حذائها: أنيقة رشيقة تلبس من عند ديور وشانيل وسكياباريلى وهيئتها تقول إنها لا تنسى أبدًا موعدها الأسبوعى مع قاعة التجميل أو الصالون دبوتيه، كل ذلك مع كمال وحشمة وأدب وظرف وحنان أنثوى عظيم.

* * *

وفى مدريد كانت سكرتيرة المعهد الأولى أمينة السر حقًّا، والذين عملوا هناك لا ينسون قط سيلفى لا مفوس، ثم مرسيدس ماس، نظامنا الحكومى لا يعطى أمثالهن إلا ملاليم ثم يرسلون إليك من القاهرة بأمر بألا يزاد راتب الموظفين المحليين إلا بعد استشارة مجلس الدولة! وفى نفس الأسبوع يصلك شاب هايف عينوه ملحقا ثقافيا ثانيًا أو ثالثًا وراتبه مئات ولا عمل له على الإطلاق، ومن أول يوم يصبح عبئًا عليك وعلى

السكرتيرة، وحضرته لابد أن يشترى السيارة المرسيدس من الأسبوع الأول، ويتقدم إليك بقائمة مشتريات من المسموحات فى طول ذراعه، وفى قرار تعيينه أنه يتقن الفرنسية والإنجليزية وعنده مبادئ فى الأسبانية، ويتبين لك فى النهاية أن كل ما لديه يادوبك مبادئ فى العربية، وهذه هى حصيلة بكالوريوس العلوم الاقتصادية الذى يحمله بدرجة مقبول، ولكنه يا سيدى قريب فلان أو كتب فى صحيفة مجهولة عشر مقالات غزل فى واحد من الآلهة، أو أنصاف الآلهة الذين كانوا يحكموننا، وهذه هى المكافأة، وهى فى نفس الوقت عقاب لك ولكل من يعرفه، والسكرتيرة تأخذ ٥٠ جنيها وحضرته يأخذ ٥٠٠.

* * *

وأخيرا وعندما ألقت سفينتى مراسيها فى الوطن العزيز وأصبحت فيما قيل لى «رئيس تحرير قد الدنيا» قال لى مدير العاملين.

- أختار لك إن شاء الله سكرتيرة معتبرة.

وأقول له: يافلان إننى فى مصر أفضل السكرتير على السكرتيرة إذا لم يكن من ذلك بد..

- وليه يادكتور؟ إن السكرتارية اختصاص العاملات، وكل الرؤساء هنا عندهم سكرتيرات وهم مبسوطون أربعة وعشرين قيراطًا.

- يافلان أنا رجل عملى جدًّا، أريد أن أغلق باب مكتبى وأملى مقالى، وأريد من مساعدى أن يأتينى بالكتاب الفلانى من المكتبة، ويشترى لى الكتاب العلانى من شارع الجمهورية أو سور الأزبكية، وأطلب إليه أن يمر بى فى البيت لنراجع معًا بريد القراء، وأملى عليه الإجابات، وهذا كله

أستطيع أن أعهد فيه إلى السكرتير، أما السكرتيرة فأنت تفهم عنى، ونحن فى بلد شرقى، ولا يمكن أن تطلب من السكرتيرة ذلك كله، هذا إلى أنى أريد شابًا يكتب الماكينة بسرعة وكفاية.

– عندى يا افندم كل ما تطلب. عندى بنت هلوبة تؤدى لك كل ما تريد، وتكتب الماكينة بسرعة سبعين كلمة فى الدقيقة كتابة معتبرة وهى خريجة معهد التجارة العالمية.

وأحس أن السيد مدير العاملين قد اختار وقرر وعين وكل هذا الحديث بينى وبينه لا طائل وراءه، والسكرتيرة التى اختارها أخت الست حرمه واسمها مدام عفاف، وهى كما قال هلوبة، والسيدة عفاف اللهلوبة ستكون فى مكتبها الملحق بمكتبى غدًا إن شاء الله من الساعة الثامنة والنصف صباحًا.

وأنا بطبعى رجل مبكر أؤمن بالحديث الشريف: البركة فى البكور، وحوالى الثامنة أكون فى مكتبى أكتب وأراجع.

والساعة العاشرة تصل مدام عفاف وتبدأ يومها بخناقة مع الفراش الذى لم ينظف مكتبها والصوت يترامى إلىّ من بعيد وأرفع السماعة وأقول:

وصلت يا مدام عفاف؟

– وصلت يا دكتور وسآتيك بعد دقيقة، بعد أن أجد لى حلا مع الفراش.

– إذن فأوصلينى بالأستاذ فلان فى جريدة الجمهورية.

– وما رقمها يا دكتور؟

– يا مدام عندك دفتر التليفون، وهناك عمال الاسوتش تصرفى.
- سه يا مدام عفاف فإن أمامنا عملاً كثيراً وبعد أن تفرغى من تلك المكالمة تفضلى إلى مكتبى لأعطيك شيئاً تكتبينه.

وبعد ثلث ساعة أطلبها فتقول إنها لا تصل إلى رقم جريدة الجمهورية، فأستدعيها وأدعوها للجلوس، وأطلب مكتب رئيس مجلس الإدارة، وأحصل منه على أرقام كل الصحف وأناولها إياها وأقول:

– هكذا كنت أريد منك أن تتصرفى، فإن الإنسان ينبغى أن يعمل عمله، وكان ينبغي أن يخطر على بالك أن سكرتيرة رئيس مجلس الإدارة لديها أرقام كل الصحف، والآن اعملى لك دفتر عناوين مرتباً على الحروف الأبجدية، ومن الآن فصاعداً تكتبين الأرقام التى تهمنا. والآن خذى هذا المقال واكتبيه على الماكينة.

وأخذت المقال ومضت، وبعد ساعة أذهب لأرى ماذا عملت فأجدها لم تكتب شيئاً.

– لماذا يا مدام.
– لا أستطيع أن أقرأ خطك.
– ولماذا لم تقولى ذلك من ساعة، إننى أعرف أن خطى عسير بعض الشيء. ولكنك إذا عرفت بعض قواعده سهل عليك بعد ذلك. أعطنى المقال لأراجعه وخذى هذا الكتاب وانقلى هذه الصفحة.
وتأخذ الكتاب وأنظر فإذا بأختنا تكتب بأصبع واحدة، وتأخذ فى سطر دقيقتين فأقول:

– يا مدام عفاف، ألا تكتبين سبعين كلمة فى الدقيقة؟.. هـذا نص مطبوع.

أكتب ولكنى متعبة هذه الأيام.

وأتبين أن مدام عفاف حامل، ومادامت حاملاً فلا مجال لمطالبتها بأى عمل، فآخذ أوراقى وأقول لها:

– ما دام هذا هكذا فلماذا أخذت عمل السكرتارية؟

– كل السكرتيرات هنا عملهن الوحيد هو التليفون..

– ياسيدتى أنا لست وزيرًا ولا رئيس مجلس إدارة حتى يطلبنى الناس كل دقيقة، وأتصل طول اليوم بالحكام، والناس العظام، إن عملنا كله قراءة وكتابة ومراجعة، فمن الآن تتمرنين على الآلة الكاتبة، وخذى هذا البريد فاقرئيه، واكتبى أعلى كل رسالة ملخصًا لها حتى نرد على صاحبها.

وبعد ساعة من العمل أناديها لأرى ماذا فعلت بالبريد فلا أجدها ويقولون لى إنها نزلت إلى الجمعية التعاونية فقد وصلت إليها دواجن فأسرعت لتأخذ نصيبها.

وفى اليوم التالى، تأتى بعد العاشرة بقليل، وتعتذر بأنها كان لابد أن توصل أولادها إلى مدارسهم ثم تشترى بعض أشياء البيت، ونظرت إليها وفهمت، فتركتها ومضيت إلى عملى، وقد عولت على أن أقوم بكل عملى وحدى وكأن لا سكرتيرة هناك، وأنا لم أطلب هذه السيدة، وليس لى حق فى أن أطالبها بشىء. فهى ليست هنا للعمل، بل لأنها فى حاجة إلى المرتب ولا ضير فى هذا أصلا، وبعد قليل تأتى إلى مكتبى وأدعوها للجلوس فتجلس وتقول:

- كنت أحسب أن كل عملى فى السكرتارية هو المكالمات التليفونية وإدخال الزوار عليك بالدور.

- لقد تكلمنا فى هذا أمس وأظنك رأيت أن زوارى ليسوا عشرات. إنهم قليلون جدا، وكلهم صحفيون وكتاب، وكلهم زملائى فلا دور هنا ولا استئذان.

وإنما الشىء الذى أحتاج إليه حقا هو الكتابة على الآلة الكاتبة، فهذه المقالات لابد أن تكتب على الماكينة قبل أن تنزل المطبعة، ورسائل القراء مهمة جدا. فالقراء هم أصحاب كل المطبعة، ورسائل القراء مهمة جدا، فالقراء هم أصحاب كل مجلة أو جريدة، ورسائلهم تعبير عن حبهم أو عدم حبهم لمجلتنا، واستجابتنا لرسائلهم دليل على تقديرنا لحبهم، وأنت فيما أرى بطيئة جدًا فى الكتابة على الآلة وخطى وخطوط القراء عسيرة عليك، فلا تضايقى نفسك، تكفيك أسرتك وأولادك: من وصل منهم إلى هذه الدنيا فعلاً ومن هو فى الطريق إليها.

كأننى لم أنجح فى عملى معك.

- لا داعى لأن تضايقى نفسك، الحق أن هذه ليست مسئوليتك، بل هى مسئولية قريبك مدير العاملين الذى قال لى إنك «هلوبة» وكنت تستطيعين فعلا أن تقدمى لى عونا كبيرًا،ولكن لا عليك، لا تضايقى نفسك، عودى إلى مكتبك واعملى ما تشائين، فلن أضايقك بطلب بعد الآن.

فصمتت لحظة ثم قالت:

- ولكن صدقنى إذا قلت لك إننى أحسن من غيرى بكثير فى هذه

الدار، إننى على الأقل أحاول، وسأجتهد فى التمرن على الآلة وستجدنى بعد قليل فى المستوى الذى تريد..

- هذا أحسن، وتستطيعين أثناء ذلك أن تعاونى مدير التحرير فى إنجاز أعماله، فإن عليه عملاً كثيرًا مع المطبعة.

وبالفعل تحسنت الست عفاف كثيرًا. تقدمت فى الكتابة وتعلمت الكثير من مدير التحرير، وأصبحت فى الواقع عاملة مناولة أو عاملة مراسلة، ولكنها لم تستطع أبدًا أن تتحكم فى وقتها، كانت تعيش بعقلها وكيانها فى بيتها، أولادها وبيتها قبل كل شىء، وزوجها لم يكن رجلاً مريحًا ولكنه محور حياتها، أحيانًا كانت تأتى بابنها الصغير إلى المكتب، والولد طول الوقت يجرى فى الممرات، وأحيانا كنت أراها تشتغل التريكو، ولم أعد أهتم، ولو أنها أتت بالخضار لتعده فى المكتب كما يقال أن غيرها يفعل لما أدهشنى ذلك، فهذه ليست فى الحقيقة موظفة وإنما هى ربة بيت، وأم أولاد تستعين براتب الوظيفة على تسيير أمور أسرتها.

وعندما تقدمت فى شهور الحمل ثقلت فى مكانها، أصبحت تأتى قرابه الحادية عشرة وتجلس ساكنة لتستريح، لأن زوجها وأولادها يتعبونها فى البيت، أما هنا فى المكتب فهى تستريح، ومن حقها أن تستريح، وأخذت الماكينة إلى غرفتى لكى أكتب عليها رسائلى، فدخلت يومًا وقالت:

- إنك تجيد الكتابة فيما أرى

- إننى أكتب الأشياء البسيطة

وتعود إلى مكتبها ثم ترجع ومعها ورقة وتقول:

- هل أطلب إليك معروفًا؟

- فى خدمتك ياست عفاف.

- هذا طلب أريد أن أتقدم به إلى نقابة الصحفيين أريد أن أدخل النقابة، كل زميلاتى دخلن النقابة..

- والمطلوب منى؟

- ولو فيها رذالة، تكتبها لى على الآلة، إنها ثلاثة سطور. وتوافق على الطلب وتتفضل بتأييده، النقابة تشترط ذلك، ولكنك لست صحفية ياست عفاف.

- قلت لسيادتك إن زميلاتى كلهن دخلن النقابة، رؤساء التحرير وافقوا على ذلك وأنا لست أقل منهن.

- يا مدام عفاف. المفروض أنك سكرتيرتى: تكتبين لى وتساعدينني. وقد وجدنا أن ظروفك لا تسمح لك بذلك وسكتنا، والآن تريدين أن أكون أنا سكرتيرك؟ أكتب لك الطلب على الآلة وأوافق عليه على رغمى، لم يبقَ إلا أن تعودى إلى مكتبك وأقوم أنا بتحويل المكالمات التليفونية إليك!

وهذا ما حدث بالفعل! لأن مدام عفاف اقتربت من الوضع فأصبحت تأتى يوما وتتغيب اثنين، وقريبها مدير العاملين يطلب إلىّ أن أتساهل معها فأقول له:

- اسمع يا أخى. إننى بالفعل سأتساهل معها، لا لأنها قريبتك بل لأنها سيدة طيبة محترمة، وأنا أحترم السيدات، إنها تعمل إلى الآن تسع سنوات فى الدار، وكان من الممكن أن تكون سكرتيرة تحرير ناجحة جدًّا، لقد كانت بالفعل هلوبة عندما تخرجت فى المعهد وعملت فى الدار، ولكن

وصايتك عليها جعلتها كركوبة، كان من الممكن أن تكون موظفة ناجحه وربة بيت ناجحة، فأصبحت الآن زوجة غير ناجحة وموظفة أقل نجاحًا. فهى تريد منى أن أكتب لها طلباتها، وهى معظم الوقت متغيبة، زوجها وصاحباتها وقريباتها يتصلن بى ويأمروننى بأن أبلغها رسائل، والست أمها تكلمنى منذ أيام وتطلب إلى أن أبعث فراشًا يبلغ ابنتها رسالة ثم تقول إن البنت مرضت لكثرة العمل فى مكتبى، لا يكفى الست الهانم أننى أصبحت سكرتيرًا لابنتها، بل هى تحملنى الآن مسئولية تعبها، قلت لك مرارًا: إننى لن أنتفع بسكرتيرة ولكنك تصورت أنك تخدمها إذا فرضتها علىّ وهذه هى النتيجة.

- إذا كنت فى غير حاجة إليها فسأنقلها إلى مكتبى.

- افعل ماترى، فأنت المسئول عن العاملين، أما أنا فلا أظن أننى أحتاج إلى سكرتير.

- إذن فعندى لك شاب أعتقد أنه ينفعك.

- لا والله يا أخى، كفاية الست عفاف ولا حاجة لى بالسيد عفيفى، إذا كنت تريد أن تخدم كل أفراد عائلتك فعلى غير حسابى.

* * *

وبين الحين والحين جعلت أسأل نفسى: لماذا تنجح المسز نورما كارتينى، ومدام فرانسواز أرفيو وسنيوريتا سيلفى لا مفوس، ومرتيدس جينزالت ماس فى أعمالهن ولا تنجح ست عفاف؟ هل هى أقل ذكاء أو استعدادًا للعمل؟ هل هى أقل إخلاصًا أو تفانيًا فى العمل؟

غير صحيح! فأنا أول المنادين بحق المرأة فى العمل، وما عرفت فى تجاربى ميزة للرجل على المرأة فى الذكاء أو القدرة أو الجلد على العمل.

والمرأة المصرية والعربية عمومًا أثبتت أنها ند الرجل ومساويته فى كل ميدان، وعندما ألقى بنظرى إلى ماضينا أشعر بمقدار الخسارة التى منينا بها عند تحكم الرجل فى المرأة، وفرض عليها سيادة غير مطلوبة ولا مشروعة عندما تصور أنه أذكى وأقدر، والمرأة العربية على الأقل أثبتت أنها فى النهاية نجحت فى القيام بدورها أكثر مما نجح الرجل، فإن الرجل أعطاها البيت والأولاد وقال لها: هذا مكانك وإياك أن تبرحيه، وأساء معاملتها، وظلمها وتزوج عليها فى السر وخانها، ورغم ذلك كله فقد قامت بواجبها وأنشأت الأجيال، وقامت على الزوج والولد. أما الرجل فقد زعم أنه يحمى الأوطان وينهض بمسئولياتها، ففشل فى الأمرين: لا هو حمى الأوطان ولا نهض بالمسئوليات والحال فى النهاية ما تراه.

والإسلام أعطى المرأة كل حقوقها، ولكن الرجال سلبوها هذه الحقوق، ورسول الله ﷺ لم يعنف فى حياته على أى من نسائه لا فى حديث أو تصرف، فجاء المسلمون فلم يعرفوا إلا العنف فى معاملة نسائهم، والتطاول عليهم باليد واللسان، ورسول الله ﷺ لم يطلق فى حياته امرأة مع أن الله سبحانه أباح له الطلاق، ولكنه أراد أن يعطى القدوة، فترك حقه فى الطلاق لكى يقتدى به الناس، فجاء المسلمون بعده وجعلوا الطلاق والزواج لعبتهم المفضلة، وأى هلفوت لا يساوى ثلاث فرنكات يقول لك إن من حقى أن أتزوج واحدة واثنين وثلاثا وأربعا، والمحكمة تؤيده فى ذلك، ولا تستحى أن تقول إن الشريعة شىء والقانون شىء، والقرآن الكريم يقضى بأن الزوجية إما عشرة بمعروف أو تسريح بإحسان، فتكون النتيجة العشرة بالسوء والضرر والطلاق بالشلوت، وقانون العمل يعطى العامل المعاش والتأمين، أما قانون الأحوال

الشخصية فيردد فى أسلوب مهذب ما يقوله الجهلاء من أن المرأة خادمة الرجل، إن المرأة فى نظر الشريعة إنسان كريم له كل الحقوق والواجبات ولكنها فى نظر المجتمع مع الأسف ما زالت فى وضع، هو أسوأ مما كانت عليه فى الجاهلية وكأننا لم ندخل فى دين ولا إيمان.

* * *

وطوال أربعة عشر قرنا تعرضت المرأة عندنا لعملية غسيل مخ، جعلتها فى النهاية تصدق ما يقال لها من أنها ملك للرجل، وعقد الزواج أصبح وثيقة بيع، ونتيجة هذا الموقف القاسى تقف المرأة بعيدًا جدًّا عن الوضع الذى تستحقه، وكل من السيدات الغربيات اللاتى ذكرتهن متزوجات ولهن أولاد، ولكن المجتمع لا يحملهن من المسئوليات فوق ما يطقن، ولهذا فإنهن زوجات فى البيت وسيدات عاملات خارجه، ولا دخل لهذا فى ذاك أبدًا، أما المرأة عندنا فتحمل معها بيتها إلى عملها، فهى تعمل من أجل بيتها وأولادها لا للعمل فى ذاته، وهى عندما تترك عملها وتسرع إلى الجمعية باحثة عن الدواجن لا تشعر بأنها تخطىء، لأنها أولًا وآخرًا أم وربة بيت، ومسئوليتها الأولى أمام بيتها، والوظيفة وسيلة لمعاونة الأسرة، ولا تصدق أن المرأة فى الغرب تتجاوز فى حياتها حدود الحرية أو حقوق الزوجية، هذا وهْمٌ كبيرٌ نعيش فيه، وهو ظاهرة فى بعض العواصم الغربية، ولكن المرأة فى الغرب ليست أقل احترامًا للشرف من امرأتنا العربية والبرهان أمامك، فنساء الغرب يحسن تربية أولادهن، وكل من تراهم من رجال الغرب الذين يقودون بلادهم بأحسن مما نقود نحن بلادنا هم من تربية نساء غربيات، والذين يحسبون مثلًا أن المرأة الفرنسية فى مجموعها متحللة متبذلة يقعون فى خطأ جسيم، لأن

امرأة الفرنسية فى صميمها من أصلح ربات البيوت، وأخلصهن للزوج وأحناهن على الولد، ولكن أحدًا لم يفرض عليهن وصاية، والمجتمع يعتبرهن مسئولات كل المسئولية عن أنفسهن فكسبن عن هذا الطريق احترامهن لأنفسهن، وأحسن بمسئولياتهن حيال أنفسهن وحيال أوطانهم وأسرهن، ومدام سوزان أرفيو تبدو لك فى الغاية من الأناقة والرشاقة، وهى لا تنسى أبدا موعدها الأسبوعى مع الصالون دى بوتيه، لأنها حريصة على أن تحتفظ بكل شخصيتها كامرأة، ولا يخطر ببالها أن تخرج إلى الطريق وكأنها زكيبة أو كيس قطن، لأن المرأة الزكيبة والزوجة الكيس لا يمكن أن تكون - بهذا وحده - أصلح من المرأة الأنيقة الرشيقة.

كان من الممكن جدًّا أن تكون مدام عفاف فى نفس نجاح مسز نورما كارتين، ولكن مجتمعنا حطمها وأنساها الكتابة على الآلة الكاتبة، وزوجها من البداية كان يعاملها بظاهر من الاحترام ولكنه فى داخل نفسه يراها رعية وملك يمين، وفى الأفلام التى تدخل بيوتنا يندر أن يوجد فيلم لا تصفع المرأة فيه على وجهها، وفى فيلم يعرض فى السينما اليوم يظهر أكبر ممثلين فى عالم السينما، وكل منهما يصفع امرأة صفعة تلقى بها على الأرض. والأولاد الذين يرون ذلك سيصفعون أخواتهم وزوجاتهم بكل قسوة. والقانون لا يطالب الرجل الراغب فى الزواج بأن يعلن بين يدى المأذون إن كان متزوجًا أو له أولاد قبل أن يعقد زيجة أخرى، والمرأة العربية هى العامل الوحيد فى الدنيا الذى يعمل دون تأمين، وهذا يمين بطلاق، وتلك نفقة سنة، وهذا مؤخر الصداق، وهذا هو كل التأمين الذى تقدمه المحاكم للمطلقة، والزوج عندما يعطى ذلك يكون رجلًا قانونيًا جدًّا ومحترمًا جدًا، أما المرأة فتلك نهايتها، ونفقة السنة لا تكفى شهرًا،

ومؤخر الصداق قروش، وأصحابنا يكتبون المقالات في الصحف عن التقدم الهائل الذى حققته المرأة المصرية، والمرأة فعلاً بذلت أقصى ما تستطيع لتتقدم، ولكن المجتمع كله متخلف، ولا يمكن لمدام عفاف أن تصبح مثل مسز نورما كارتن أو سوزان أرفيو أو سيلفى لا مفوس، لأن رجالنا مازالوا يعيشون فى عصر الملك العادل سيف الدين خوش قدم سلطان مصر والشام.

فهـــرس

رقم الإيداع		١٩٩١ / ٩٦١١
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3574 - 1	ISBN

١ / ٩١ / ٦٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

اقرأ

إن حياة المصرى بسيطة ومعقدة فى نفس الوقت. لأن المصرى بطبعه بسيط وطيب. لكن مشاكل المصريين تأتى من الاهمال.. ومن الكلام بغير مسئولية.

فأنت تطلب منه شيئًا.. فيقول لك «عينيّه» وهو طبعًا لن يعطيك عينيه. إنها مجرد كلمة يقولها. وتتوالى حكاية «عينيّه» حتى أصبح المصرى مدينًا للدنيا كلها!!!

ص ١٥٠